(٣)

الجميع يربحون الجائزة

الحدود

حين قرأت الخبر لأول وهلة ، لم أصدق عينى ، وكأنما أردت أن أتأكد من حقيقة ما وقعت عليه عيناى بقراءة النعى كاملا : « أنتقل الى جوار ربه « الحاج صالح الخضر » من أعيان « الزهايرة » والد رفعت المدرس بالتربية و ... » .

هو اذن « الحاج صالح » ولا أحد سواه ، ولأول مرة تبدو لى حقيقة الموت غريبة . حين تتصل بالحاج « صالح الخضر » .

« عن عمر يناهز الثمانين » أية غرابة فى أن يموت رجل عن هذه السن ، ربما كانت الغرابة أنه حتى فى هذه السن لم يكن يلوح فى صورة العجوز الذى ينتظر النهاية ، فمنذ رأيته وأنا صبى أجرى فى شوارع القرية ، ثم وأنا طالب أذاكر أحيانا مع ولده « رفعت » ، ثم وأنا موظف أتنقل بين الأقاليم ، ولا أنسى حين أعود الى القرية أن أزوره كواجب مقدس . فى كل هذه المراحل كان عمى « الحاج صالح الخضر » يبدو دائما كما هو ، ملامح وجهه البارزة الهادئة المتباعدة ، خطواته الثابتة لاتسرع ولا تبطىء ، الشعرات البيضاء

فى رأسه ولحيته كأنها لاتزيد ولاتنقص · ومهما يكن الموقف فلا شىء يجعل كلماته الرصينة تخرج عن وقارها ، عيناه : واحدة مفتوحة بحدة ، والأخرى نصف مفتوحة ، كأن هناك دائما شيئا يجب أن يخفيه عن الناس ·

عمى « الخضر هـذا قد أصبح جزءا من قريتنا كالترعة التى تمر بها ، وكمئذنة المسجد ، التى تلوح من بعيد · لا أحد يجهله ، كما لايجهل هو شيئا يمكن أن يقع فى الزهايرة ، فهو « مسـاح » يقيس الأرض لمن يبيع ويشترى ليعين حدودها ، وامام للصـلاة ، ومأذون يزوج ويطلق · وكان تاجرا لبعض الوقت ، تنتهى عنـده المشاكل والمنازعات ، وتبدأ منه مشاريع الاصلاح ، بنى مع الناس أول مدرسة ، وجدد المسجد القديم وأقام مئذنته ، وهاهو أخيرا يموت كما يموت كل الناس · فكيف يصدق المرء فى سهولة أن تبقى قريتنا بدون الحاج صالح الخضر ؟

« الموت حق » · قلتها لنفسى وأنا أطوى الصحيفة التى نشرت نعيه ، فى مناسبة كهـذه لابد أن أعود الى قريتى لأعـزى ، وأتلقى العزاء ، « فالحاج صالح الخضر » أبو القرية كلها ، لابد أن نكون جميعا فى وداعه ، ربما لا ألحق بمراسم الدفن ، لكن حسبى أن ألحق بمراسم العزاء ·

فى طريقى الى القرية ، كانت المشاهد القديمة تتراءى لعينى ، والتاكسى يمرق بين الحقول على الطـريق الزراعى ، فى أى شىء تختلف حقول القمح عن مثيلاتها فى العام الماضى ؟ باعة البرتقال ، وسائقو الشاحنات الضخمة ·· يغطون رؤوسـهم بنفس الطواقى الصوفية التى تلتف حول الرأس والعنق ، وقطعان الماشـية التى تسبقها أو تركض خلفها الكلاب الأليفة فى الريف ·

فى الريف تبدو الدنيا ثابتة الملامح ، وهكذا كان الحـاج صالح الخضر تتجمع فى ملامح وجهه وشخصيته روح ذلك الريف

الهادىء الساكن ، فى طفولتى كان يأسرنى ذلك الهدوء وتلك الوداعة التى تشمل كل شىء ، النبـــات ينمو فى هــدوء لايكاد أحــد يشعر بحركته ، الماشية تسير فى بطء ، وتمضغ طعامها بنفس البطء وحين يحكى الناس نفس القصة ، فانهم يتوقفون عند نفس المقاطع ، وتألف ملامح الوجه انطباعاتها التى ربما تتأثر بالوقت وبالمكان ، فهى فى الصباح غيرها فى المساء أو فى الظهيرة ، وفى أوقات العمل غيرها فى أوقات الراحة على المصاطب ، أو فوق أكوام القش المتكومة فى الأجران ٠

لاتتأثر هذه الملامح كثيرا بالموضوع الذى ترويه ، فالموضوع فى حياة القرية ثابت لا جديد فيه ، الأغنياء أغنياء ، والفقراء فقراء ، والأرض تزرع بنفس الطريقة منذ آلاف السنين ، « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يكن هناك مايثير طفولتى سوى شغفى بأن أعرف من أين تأتى تلك اللحظات التى يتبدد فيها ذلك الهــدوء ، وتختفى تلك الوداعة ؟ ليتحول ذلك الشعور العميــق بالسلام والأمان الى صرخة فزع يتجمع حولها الرجال والنســـاء والأحزان ٠

كان هذا الشغف هو الذى قاد خطـــاى الى عمى الحـــاج صالح الخضر ، لكن قبل أن ألتقى به كنت أبحث بنفسى ، فى حدود قدرتى على أن أرى وأفهم ٠ فى البداية كنت أعتقد أن هذه اللحظات تأتى من المواقف التى يتجمع فيها الناس خارج اطار العمل ، فى الأعراس والموالد ، حيث يختلط الصغار بالكبار ، والنساء بالرجال ، حيث لايمكن لأحد أن يعرف على وجه اليقين من فعل ماذا ؟

فى مثل هذه المواقف التى كان يخافها الناس بقدر مايحبونها ، غالبا ماكان يحدث الشجار ، وتنطلق صرخة الفزع التى تبدد الهدوء والوداعة ٠

وعمرهم ماعرفوا الأسباب الحقيقية لما يحدث من شجار فى مثل هـذه المواقف ، لكنه لايكاد يحدث حتى ترى هـؤلاء الودعاء الطيبين ، وقـد انفلت زمامهم ، وخـرج من أعماقهم ذلك الوحش الكامن ، وانطلق ليطارد فريسة كانت طول الوقت بجواره دون أن يفكر فى العدوان عليها ، وفى مثل هذه المناسبات قد يصيب الوحش الغاضب من لايريد ولايقصد ، ويبدو كأنه يخطىء دائمـا هـدفه ، حتى ولو كان يعرفه · ودائما كانت تبدو المسافة شاسعة بين الأسباب الظاهرة للشجار ، والنتائج البشعة ·

كنت فى حاجة الى سنوات أكثر قبل أن أعرف أنه توجد هناك مواقف أخرى تأتى منها هذه اللحظات الحافلة بالعنف الحقيقى الذى لايخطىء هدفه ، وأن بطل هذه المواقف هو ذلك الرجل ذو الملامح الهادئة والصوت الرصين عمى « الحاج صالح الخضر » ·

كانت الصرخة فى هذه المرات تأتى من بعيد ، من قلب الحقول أو من أى مكان يوضع فيه الأساس لبناء جديد · حيث يقف الحاج صالح الخضر بين الرجال ، يدق مساميره الحديدية التى تشد اليها خيوط الدوبارة القوية ، وتمتد مع القصبة الضخمة التى تقيس حدود الأرض حين تنتقل ملكيتها من شخص لآخر · وغالبا مايكتشف مالك الأرض الجديدة أن الحدود بين أرضه وأرض الجيران قد تداخلت ، هنا أو هناك ، وأن أحدهم قد انتزع الحديد الذى تدقه « المساحة » ليفصل بين الأراضى المتجاورة · ويكون من الصعب على المالك القديم أن يصدق أنه كان طـول الوقت يزرع أو يبنى فى غير أرضـه ، وعلى المالك الجديد أن يتنازل عن شبر واحد أثبت قياس الحاج صالح الخضر الذى لايخطىء أنه من حقه ·

هنا كان يتفجر عنف حقيقى لاتجدى فيه حكمة الرجال ، عنف صاخب هادر لاينتظر لحظة واحدة حتى تأتى الحكومة لتعطى لكل

ذى حق حقه ، عنف لا تنفع فيه شفاعة شافع ، ولا تخفف منه قرابة أو صداقة ٠

وما كان يحيرنى بحق هو ذلك الهدوء القاسى الذى لايفارق وجه « الحاج صالح الخضر » وهو يرى هذا العنف ، كأنه مسلم به مقتنع بضرورته . يذهب الى عمله متوقعا أن المخاطر قد تكون فى انتظاره ، دون تردد يقوم بعمله ، بهدوء وأناة وأمانة يعلن نتيجته على الملأ ، وهو يدرك أنه قد يفجر كارثة بكلماته ، يحدث ما يحدث ، يموت من يموت ، يجرح من يجرح ، ويشارك الحاج « صالح الخضر » فى فض النزاع أو تخفيف الكارثة ، ولكن موقفه من فض هذا النوع من النزاع يختلف عن موقفه فى فض المنازعات الأخرى ٠

فهو هنا يبدو كأنه مسلم بضرورة مايقع ، لايملك سوى تخفيف الكارثة ، أو اقناع الأطراف بالانتظار حتى تأتى سلطة الحكومة لاقرار الحق ، لكنه فى المنازعات الأخرى كان يتصرف باقتدار وحكمة ، وكأنه على ثقة من قدرته على اقناع كل الأطراف بما يريد ٠

لم يخرج عن هدوئه القاسى الا فى ذلك اليوم المشئوم الذى قتل فيه « محروس المداح » ٠ ذلك أن محروس المداح كان أحد الأجراء الذين لا يملكون سوى عرقهم ، يعمل فى الحقول باليوم أو بالشهر فى بيت صاحب الأرض التى يزرع فيها ، ينام فوق السطح صيفا ، وفى مخزن الأعلاف شتاء ، لا بيت له ولا زوجة ، مقطوع من شجرة كل ما يمتلكه هو فأسه ، « ودف » ينقر عليه بأصابعه وهو يغنى فى الأعراس والموالد ، « وحلم بأن يكون له بيت صغير يتزوج فيه » ، وحين يريد أحد ليغنى له فى عرس أو مولد يأتى له فى بيته واذا سأل عنه أحد من القرى المجاورة وجد من يدله على بيته ، ويقول له :

ـ هاهو بيت محروس المداح ٠

وكان أن وضع محروس المداح قرشا فوق قرش ليصبح له بيت مثل كل الناس ، وأحيانا كان يجد من يقول له ساخرا :

– سوف ينتهى عمرك يامحروس قبل أن تجمع ثمن البيت ·

فكان يرد ضاحكا :

– على الأقل سيكون معى ما أشترى به مقبرة لايدفن فيها غيـرى ·

كان محروس وديعا مرحا ، ورغم قسوة الحياة التى عاشها، لم يسمع منه أحد كلمة تنم عن كراهية أو حقد أو شكوى ، وفوجىء الحاج صالح الخضر ذات صباح بمحروس يدق باب بيته :

– أهلا يا محروس ·· خير يابنى ·· ؟

– اشتريت قطعة أرض صغيرة · نصف قيراط ، أريدك أن تقيســـها لى ·

– أين ؟

– فى الخرابة الواقعة خلف منزل «الشناوى» ·

– مبروك يا محروس ··

قالها « الحاج صالح الخضر » بشكل آلى ولكنه تابع بلهجة قلقة كمن تذكر شيئا ·

– ألم تجد غيرها ؟ لماذا هذه القطعة من الأرض ؟

– هى وحدها ما يناسبنى · فلا أحد يريد شراءها · وثمنها هو ما أقدر عليـه ·

– والشـــناوى ··؟

قالها بنفس النبرة القلقة ·

– عرضها عليه أصحابها باعتباره أولى بها ، ولكنه رفض شراءها ·

ـ ووافق على أن تشتريها أنت ؟

ـ نعـم ٠

ـ هل أنت متـأكد ؟

ـ تعـال معى وسترى بنفسك ٠

ـ يفعل الله ما يشاء يابنى ٠

قالها الحاج صالح وهو يجمع أدوات القياس ويمضى معه ٠

★★★

كنت واحدا من الذين تجمعوا حول «الحاج صالح الخضر» فى ذلك اليوم المشئوم ، وهو يقيس الأرض الخراب الكائنـة خلف منزل «الشناوى» ، لأول مرة لا يعلن الحاج صالح نتيجة القياس على الملأ ٠ وهمس فى أذن محروس المداح بما لم يسمعه أحد ، لأول مرة عجـزت ملامح وجـه الحـاج صالح عن أن تحتفظ بهدوئها القـاسى ٠

سـمع النـاس صوت « محروس المداح » وهو يقول بصوت مرتفـع :

ـ هذه أرضى ٠ دفعت ثمنها كاملا ، ولابد أن أتسـلمها كامـلة ٠

عاد الحاج صالح يهمس فى أذن محـروس بما لم يسـمعه أحـد ، وعلامات القلق تزداد وضـوحا على وجهه :

وعاد محـروس يصرخ :

ـ كان من حقه أن يشتريها ، فلماذا رفض ؟

آنذاك استرد وجه الحاج صالح هدوءه القاسى ، وأعلن على الملأ أن الجدار الغربى لزريبة المواشى التى يمتلكها « الشناوى » يقع فى جـزء من الأرض التى اشتراها محـروس المداح ، وأنه لابد من هدم ذلك الجدار ، ليأخذ محروس أرضه كاملة .

آنذاك تقدم الشناوى وأولاده من حوله ، وقال بصوت خشن مخاطبا الحاج « صالح الخضر » :

ـ أنا مستعد أن أدفع ثمن هذا الجزء لمحروس ، ولكن لن أهدم جدارا بنيتـه .

قال الحاج صالح الخضر :

ـ ليس هذا عدلا ، فمـا يتبقى من الأرض لا يصلح لبنـاء حجرة بمنافعها ، اما أن تشتريها كلها ، وقد تنازلت عن هذا الحق أو تتركها كلها لتصلح للبناء .

ـ لن أشتريها كلها ولن أترك الجـزء الذى بنيت فيه .

قالها بلهجة حاسـمة منذرة ، ورأى النـاس فى لهجـة « الشناوى » بداية شر كبير ، وأحسوا أنه يتكلم بلغة المستخف بقدرة محروس المداح على أن يحمى حقه ، وتمنوا جميعا فى صمت لـو تراجع محـروس عن شراء هذه الخرابة المشئومة التى لم يفكر أحد غيره فى شرائها ، وربما لأنهـم يعـرفون أن الشـناوى وأولاده طامعـون فيها .

وتطلعت كل العيون الى محروس المداح ، المقطوع من شجرة، الذى لا يملك غير فأسه ودفه ، ترجوه فى صمت أن يتراجع عن هذه الصفقة اللعينة ، أول صفقة عقـدها فى حيـاته ، وحتى لا تكون الأخيرة .

لا أحد يدرى كيف أحس « محروس المداح » بهذه العيون ·

لا أحد يعرف فيما كان يفكر ، ولكن الصمت الذى خيم على الجميع ، والانتظار الأليم وضعاه لأول مرة فى حياته فى موقف ، ربما لم يتخيل يوما أن يجد نفسه فيه حين كان يغنى فى الموالد والأعراس · كان يعرف مثل هذه اللحظات الصامتة · وكانت العيون كلها تنظر اليه ، وتنتظر أن يغنى ، وأبدا لم يخب رجاء هذه العيون المتطلعة المنتظرة ·

فى هذه المرة لم يطل انتظار الناس ، تكورت يده على مقبض فأسه ، كما تعودت أن تتكور حين كان يعمل فى الحقول ، وارتفع الفأس فى يده لينقض على الجدار الغربى لزريبة الشناوى · وفى لحظة كالبرق ارتفعت فئوس كثيرة ، ربما كان وحده الذى يراها فى يد أولاد الشناوى ، ولكنها لم تمنعه من أن يفعل ما فعل· ودوت صرخة الفزع اللعينة فى سماء القرية ·

★★★

بعد أيام من ذلك الحادث المشئوم بدأت علاقتى بعمى «الحاج صالح الخضر» · سألته :

ـ لماذا تركتهم يقتلون محروس المداح ؟

ـ هو الذى قتل نفسه ·

ـ كيف ؟

وحكى لى ما جرى بينه وبين محروس ، حتى رجاءه الهامس له بأن يتخلى عن هذه الصفقة اللعينة ولكنه رفض ·

سألته :

– هل كان يعـرف أنهم يمكن أن يقتلوه ؟

– ربما تأكد من ذلك ، فى وقت لم يعـد بمقـــدوره فيه أن يتـراجع .

– كان يمكن أن ينتظر حتى تأتى الحكومة وتعطيه حقه .

– يا بنى . رؤية الانسان للظلم تفقده أحيانا صوابه .

– يا عمى الحاج صالح . عن أى ظلم تتحدث ؟ هل تعتقـد أن هذه هى أول مرة يظلم فيها « محروس المداح » ؟ هل تعتقد أنه أخذ حقه فى أى يوم مضى ؟ لماذا قبل الظلم طول حياته ، وثار فى هذه المرة وهو يعلم أنه قد يدفع حيـاته ثمنا لهذه الثورة .

لأول مرة رأيت ابتسامة حزينة ترتسم على ملامح وجهـــه البارزة المتباعدة ، وقال :

– كبرت يابنى .

ثم اســـتطرد وقد عادت الى ملامح وجهـه تلك الصرامة الهـــادئة :

– ان الظلم وحده لا يكفى . حين يكون الظلم عاما وشاملا حين يصبح مألوفا كالتقاليد ، حين لا تعـــرف له سببا واحدا أو مصدرا واحدا ، حين لا يكون مجسدا فى شىء ترى حـــدوده وتعرف أوله وآخره ، حين لا يكون هناك من يرى ومن يسمع ، فان الناس يحتملون الظلم يابنى ، ولكن فى لحظة كهذه اللحظة التعسة، حين نقيس الحدود يكون كل شىء واضحا ذلك الوضوح الأليم ، ويتواجه الظالم والمظلوم فى لقـاء يزيد من تعاسته وجـــود من يتفرج على هذه المواجهة ، انها لحظة لا يحتملها أحد ولا يقدر على انقاذ الانسان منها سوى أن يموت ، أو يموت ظالمه .

ثم تمتم فى صوت مخنـــوق :

ـ لقد تعبت من هذه المهنة يابنى · ولابد أن أتركها لغيرى ·

يومها لم أجد بنفسى أية رغبة فى أن أثقل عليه بالأسئلة ، لكن صداقتنا الحقيقية بدأت منذ ذلك اليوم ، واستمرت حتى اليوم الذى قرأت فيه نعيــه ·

كنت أسأله دائما عن كل ما لا أفهم من شئون القرية ، فقط خجلت من أن أسأله عن السبب فى أنه لم يترك مهنته القاســية كما قال لى بعد مقتل « محروس المداح » ، دون أن يسكن يوما فى البيت الوحيد الذى امتلك أرضه ·

لقد ظل حتى آخر لحظة من حياته يقيس الأرض ، ويعــلن للناس الحقيقة التى قد تؤدى الى موتهم · وها هو أخيرا يمــوت دون أن أوجه اليه سؤالى الأخير ، ودون أن أتلقى منه اجــابة علىــــه ·

ولأول مرة يبــدو لى الموت أمرا غريبا حين يتصل بالحـــاج صالح الخضر ، ويبدو لى أكثر غرابة حين يأتى هكذا دون سبب واضح كالدفاع عن حق مغتصب ؟

★★★

من بعيد كانت القرية تقترب · مئذنة المســـجد التى بناها الحاج صالح الخضر ، الترعة التى تمر بقرية الزهايرة ، الهدوء الخادع الذى يلف كل شىء ، وتوقعت أن أجد الحاج صالح الخضر

فى بيته كما تعودت فى كل مرة أزور فيها قريتى ، وقلت لنفسى : لن أنسى هذه المرة أن أوجه اليه سؤالى دون خجل · لماذا ظل حتى الآن يمارس مهنته · لماذا لم يكف عن اعـلان الحقيقة القاتلة ؟

توقفت السيارة أمـــام الخيمة التى يجلس فيها المعـزون « ورفعت » صديق طفولتى يستقبلنى أمام الخيمـــة ·

ـ البقية فى حيـاتك !

قلتها وأنا أشد على يد صديقى القديم ·

ـ أطال الله بقاءك !

سمعتها منه ومن كل المعزين الذين درت عليهم فى الخيمة !

ـ جئت فى الوقت المناسب ، سوف نتحرك بعد قليل للدفن !

بعد لحظات ، تحركت القرية فى صفوف غير منتظمة تتداخل وتتسع مع ضيق الشوارع واتساعها ، تردد فى خشوع أدعيتهـا المأثورة فى وداع أبنائها الى العالم الآخر ، ودائما كان هنـــاك من يتحدث فى أمور دنيـاه !!

داخل المسجد الكبير صلى بعض الناس صلاة الجنازة على الميت ، ثم بدأت القرية تسير فى اتجاه الهضبة التى توجد فوقها قرية الموتى · كانت هناك سحابة من الغبار تظلل الموكب ، وتتحرك بحركته ، وتختلط بها كلمات الناس ، وأحيانا تختفى ملامحهم ·

أمام المقبرة توقف الموكب ، وامتدت الأيدى تحمل الجثمـان الى مقره الأخير !

واستقر الجثمان فى مكانه من الأرض التى كان وحده يعرف أسرارها !

وارتفعت الأصوات :

ـ لا اله الا الله !

أحسست بنداوة الدموع فى عينى · كان الحـــاج صـالح الخضر قد غاب عن عينى كأنما بأسرع مما ينبغى ، كأنه هو الذى فعل ذلك ، وعلى طريقته فى حسم الأمور !

ولأول مرة يمضى وحده دون أنيحمل معه أدوات القيـاس التى كانت لا تفارقه ، لم يعد فى حاجة اليها ، فقرية الموتى التى لا تزيد ولا تنقص ، والتى يتجاور فيها أهل « الزهايرة » لأول مرة فى سلام أبدى ، الظالم والمظلوم · لا يحتاج أحد فيها أبدا ، الى أن يعرف حدود ما يحتاج اليه ، أو ما يستحقه !!

بطاقة شخصية لرجل مجهول الهوية

من رأى منكم هذا الرجل فليدلنى على عنوانه ؟

أغلب الظن أننا جميعا قد رأيناه ، ليس يهم عدد المرات ، المهم أنه فى كل مرة قال كل واحد لنفسه : هذا رجل لا ينبغى أن نضيعه ، ان صداقته فى حد ذاتها مغنم كبير ٠

ومع ذلك فيبدو أننا جميعا قد ضيعناه ، واذا كان هناك من لا يزال يحتفظ حتى بعنوانه فليدلنى عليه ٠

انه لا ينتمى الى طبقة بعينها ـ ومهما يكن مفهوم الطبقة ـ تجده بين الأغنياء والفقراء ، تجده بين من تعلموا فى أرقى المدارس وبين من علمتهم الحقول والمصانع أو الحوانيت والشوارع ٠

ومهما يكن دينه أو لهجته أو سحنته فانه فى جوهره لا يختلف ٠

أعرف أنه سوف يصاب بالفزع أولئك الذين لا يروق لهم كثيرا أن يتحدث أحد عما هو جوهرى فى الانسان ٠

ولست أريد أن أطمئنهم ، فكل ما أريد أن أجـد أحدا يدلنى على صديقى الغائب ، ولن أتردد فى قبول نصيحتهم لو كانوا يملكون مثل هذه النصيحة ٠

أغلب الظن أنك قد التقيت به فى تلك الفترة الذهبية من حياتك التى كنت تهتم فيها بأن يكون لك ثروة من الأصدقاء ، قد كان له رأيه فى الصداقة والأصدقاء ، فالصديق عنده هو من تشعر بالحاجة اليه حين لا تكون فى حاجة معينة الى أحد معين ٠

ولست أنكر أننا كنا نتهمه بالمغالاة ، ولكن أحدا منا لم يـكن يتصور أن يأتى يوم نفقد فيه حتى عنوانه ٠

كنا فى العادة نلتمس الأصدقاء فى مواقع الحاجة اليهم ، وحين كانت ثروتنا من هؤلاء الأصدقاء تتعاظم كان ذلك يعنى من بعض نواحيه أننا نملك الكثير من الحـــاجات ، ونملك الكثير من القدرة على اشباعها ، وكان ذلك من بعض الوجوه مثار اعتزاز الكثيرين منـا ٠

ولكن أحدا منا ـ فى هذا العصر الذهبى من عصور الصداقة ـ لم يفقد يوما الشعور القوى بالحاجة اليه ، ولم يفقد يوما القدرة على التمييز بين نوعية هذه الحاجة ، وبين بقية الحاجات الأخرى التى تتعدد بتعدد الأصدقاء الآخرين ٠

كنا نذهب اليه حين تشبع الحاجات الأخرى المتعـددة فى لحظة التوازن النادرة هذه ، كما نلتقى عنده لنكتشف دائما أن ثمة حاجة اليه من نوع رفيع ٠ يمكن أن نسميها حاجة الحاجات ٠

وهى حاجة لم تكن تكشف النقاب عن وجهها الا فى بيته ، يوم كان له بيت نعرف عنوانه ، كما نعرف الطريق اليه ٠

ربما كانت من نوع الحاجة الى المعرفة حين لا تخدم المعرفة غرضا بعينه ، ربما كانت من نوع الحاجة الى الحقيقة حين تصبح الحقيقة حقا لكل الناس ٠

ووقتها كنا ندرك أن لحظة التوازن التى تخيلنا أنها تقودنا الى بيته لم تكن قد جاءت أبدا قبل قدومنا الى هذا البيت ، وأنها لا تتحقق لنا جميعا الا فيه ، والا بلقائنا معه ٠

ووقتها كنا ندرك أن الكثيرين من الأصدقاء أصبحوا لايرون بعضهم الا فى بيته ، وكان هذا الادراك القاسى دافعنا الى أن نحرص على زيارته ، لأن هذه الزيارة أصبحت فرصتنا الوحيدة لنلتقى معا، ونلتقى معه حول حاجة الحاجات ٠

متى كان ذلك ؟ والى متى استمر ذلك ؟ لم أعد أذكر تماما ، واذا كان بينكم من لا يزال يذكر فليذكرنى ٠

ولكنى أذكر رغم هذا كله أننا فى هذه المرحلة من حياتنا ، وفى قلب هذه الزيارات كنا نختلف معه ٠ كنا نختلف حول مفهومه للصداقة وللأصدقاء ، حول مفهومه للحاجات وأنواعها وأولوياتها ٠ ومع الأيام أصبحنا ندرك فى وضوح أننا نمضى فى الطريق المعاكس لطريقه ، وأنه لهذا السبب يحدث الخلاف ، ويعمق ، وتتسع المسافة باتساع المسير ٠

كنا نمضى فى طريق تعدد الحاجات ٠ وتعقد الحاجات وتنوعها ، وكان يمضى فى طريق تبسيطها واختزالها الى حاجة الحاجات ٠

فى طريقنا كان يحدث الصراع والخلاف والاحتدام ، ويشتد التناقض ، وفى طريقه كان يذوب الخلاف ، ويتجرد الصراع ، وتوشك العناصر المختلفة أن تكون لوحة متناسقة ، والأصوات المتعددة والمتنوعة والمتدرجة أن تصبح سمفونية ٠

ولم يكن يخيفه خلافنا معه بقدر ماكان يخيفنا نحن ٠

كنا نشعر أن الخلاف فى الرأى والموقف والموقع سوف يؤدى الى خلاف فى السلوك ، وأن الخلاف فى السلوك سوف ينتهى الى صراع يحسم لحساب السلوك الأقوى والأنسب والأصلح والاكثر ملاءمة ٠

وتقريبا كان يتفق معنا فيما نراه ، ولكنه كان يختلف معنا فى موقفه من تلك الرؤية ، فهى لا تبعث الرعدة فى أوصاله ، وهى لاتدفعه الى أن يمتشق سيفه لحسم ذلك الصراع لحساب مايعتقد أنه الأصلح والأنسب ، فهو لا يملك أى نوع من السيوف أو الحراب ولايملك حتى الرغبة فى اقتنائها ٠

وحين كنا نقول له : سوف يمتشق السيف من يملكه ولو كان لايملك السلوك الأصح والأنسب ، فكيف تدافع عن سلوكك الذى تعتقد أنه الأكثر صوابا وملاءمة ؟

فكان يقول : أدافع عنه بثباتى عليه فى مواجهة الموت ٠

وكنا نقول له : لولا أننا نعرفك جيدا لاتهمناك بأنك تنتحل صفات القديسين والأنبياء ، ولكننا نحن البشر الضعاف والفانين الذين نكره الفشل ونخاف الموت ، سوف لانقصر لحظة فى الحاق الهزيمة بمن يريد هزيمتنا ، والموت بمن يريد قتلنا ٠

لحظتها كان يبتسم ، تلك كانت قدرته العظمى ، أنه يملك تلك الابتسامة الحبة العاشقة ، لا أثر فيها للمرارة ، أو الزهو ٠ وكان يقول : ما أبعد المسافة بين من يريد قتلك ، وبين من يقتلك ، وما أبعدها بين من يريد ومن لايقصر لحظة ، أنكم تصبحون أكثر سوءا من أعدائكم ٠

وكنا نقول له : من لايعرف كيف يعادى لايعرف كيف يصادق ، تلك هى الحياة ٠

وكان يقول : ما أبأسكم ، وأنتم تلتقطون موقفا من الحياة ، فهما لهذا الموقف ، ثم تزعمون أنه هو الحياة ٠

وكان وهو ينطقها تلك الكلمة « ما أبأسكم » يبدو وكأنه عاشق متيم بنا جميعا ، ولم نكن فى تلك الأيام نختلف حول شعورنا جميعا بمحبته لنا ، وان كنا بدأنا نختلف فى محبتنا له ٠

كنا عاجزين عن فهم موقفه ، والانسان عدو لما لايفهم ٠

وتطوع بعضنا بادعاء فهمه ، قالوا : ان الحياة لاتحتمل هذه السلبية ، ولا تتحرك بها خطوة الى الأمام ٠ ان الحياة اختيار موقف وسلوك مع أو ضد ، وهى فى النهاية معركة أردت أن تخوضها أو تنسحب منها ، وفى كل المعارك لاتحدد وحدك نوع السلاح الذى تحارب به ، وفى كل المعارك أنت غالب أو مغلوب ، وقد تنتهى المعركة بالتعادل فى بعض الأحيان ، ولكن هذا كله ليس الا تأجيلا لساعة الحسم التى لابد آتية ٠

ومادامت الحدود بين الصواب والخطأ ليست مما يتفق بشأنه البشر ، ومادامت الحقيقة الشاملة لاتظهر للناس جميعا بصورة واحدة ، ومادام هناك من ينكرها ، فلا مفر من أن يمضى كل منا حتى النهاية ، وراء صوابه ، ووراء حقيقته ٠

تلك هى حكمة التاريخ ٠ أما صاحبكم فليس فيما يقوله أو يفعله سوى حكمة واحدة ، هى أنه يضع قناعا جديدا على وجه قديم ، ولو وجد بعضكم الشجاعة ليمزق هذا القناع الذى يدعوه السلام والمحبة فسوف يطالعكم الوجه القبيح «للسلبية والانتهازية» ، فهو يريد باسم الانسانية أن يبقى صديقا للجميع ، وأن يبقى الجميع فى حاجة اليه ، فهو مع كل الفرقاء ، لأنه يزعم أن كلا منهم يملك جزءا من الحقيقة ، وجزءا من التجربة الانسانية التى لاتنقسم الا فى عقول البلهاء ٠

ووجد بعضهم الشجاعة ليقول له ، لصاحبنا ، ما يعتقد أنه حقيقته ٠ فزادت الابتسامة المحبة على شفتيه اتساعا ، ومضت عيناه ببريق غريب ، وهو يقول :

ـ ان الاختلاف بين البشر هو امتيازهم الوحيد على سائر المخلوقات ، وهو معنى حريتهم ، وهو مثل كل امتياز له مشكلاته ، واستخدام العنف فى حل هذه المشكلات هو محو للامتياز ، وليس محوا للمشكلات وهو فى النهاية اعدام للحرية ٠

قالوا له : لماذا تخشى كلمة « الاعدام » ؟ ان الحرية تنطوى على اعدامها ، وأنت دائما تفعل بحريتك شيئا ، وحين تختار بديلا من بين البدائل فأنت بهذا تعدم البدائل الأخرى ٠ ان العنف أمر واقع سواء أنكرته أم لا ، بالنسبة للحرية أم لغيرها ٠

قال لهم : اننى لا أعدم البدائل الأخرى ، ولكنى أتركها فى مكانها وحتى لو جاريتكم فى اعتبار ذلك اعداما لها ، فانه لاينبغى أن نعدم الحرية ذاتها ٠ حرية العدول عن البديل الذى اخترته اذا ماتبين لى خطأ اختيارى ٠

قالوا له : تلك ياصديقنا هى لعبتك المفضلة « اذا ماتبين لك » أليس هذا هو الشعار المفضل للانتهازية ؟ وحيث تهب الريح ، فانه يتبين لك الاتجاه الصحيح ٠

قال لهم : دون أن تلوح فى صوته نبرة غضب : أنتم الذين تقولون ذلك ؟ أنتم الذين تعرفون كيف أعمل ؟ وكيف أعيش ؟ وماذا أطعم فى غذائى وعشائى ؟ وماذا أمتلك ؟ اننى لا أخاف اتهام أحد ، ولا أخاف اتهامكم ، ولكنى أخاف عليكم تلك الراحة القاتلة التى تكمن فى أن نكون أحرارا مرة واحدة فى حياتنا ، أن نختار مرة واحدة ، أن نفكر مرة واحدة ، أن نلتمس القوة فى انتمائنا الى اختيار تعززه الجماعة ، فى اختيار سبق اختياره ، انها مسألة صعبة أن تفكر وحدك ، وأن تفكر دائما ، أصعب من كل عنف تتحدثون عنه ، وأصعب من كل ثمن تعتقدون أننى أهرب من دفعه ٠

★★★

منذ ذلك اليوم ساد بيننا اتفاق ملهم على ضرورة أن نتركه فى طريقه ، وأن نمضى فى طريقنا ، نختلف ونتحارب لحسم الخلاف ، وهكذا بدأت حربنا العظمى اتساقا بأن هذا هو ماتريده الحياة · ماكان وماسيكون تلك هى القواعد الكبرى للعبة الحياة ، ومن يخرج على قواعد هذه اللعبة فلن يخدع الا نفسه ·

تركناه يخدع نفسه ، وتفرقنا لحربنا الدائمة فى كل الميادين ، بكل الأسلحة ، كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لاكتشاف الصواب القوى الواحد ، والحقيقة الواحدة التى تخرج من غمار التجارب الكبرى صافية وناصعة وقوية ، يرضى عنها أولئك الذين تثبت التجربة القاسية أنهم أكثر صحة وأكثر ملاءمة ·

الى متى استمرت هذه الحرب ؟ والى متى تستمر ؟ لاأذكر الآن ، واذا كان هنا من يتذكر أو يملك جوابا بالنسبة للمستقبل فليذكرنى ، وليخبرنى به ·

ولكننى أذكركم وأذكر نفسى بيوم لا أنساه ، ولا أحب لكم أن تنسوه ، يوم بدأنا فيه نخدع أنفسنا نحن الذين كنا قد تركناه ليخدع نفسه ، فى ذلك اليوم كان المنهزمون فى حربنا الكبرى هم الذين يذهبون اليه وحدهم ، ضحايا الحرب وجرحاها وقتلاها كانوا يفدون الى بيته ، لم يكونوا قد نسوا بعد طريقه ، ولم يكن هو قد ترك هذا البيت ·

وهناك كانت المفاجأة فى انتظارهم ، لم تكن المفاجأة أنهم وجدوا بابه مفتوحا لا يزال ، ولا قلبه مرحبا لا يزال ، بل كانت المفاجأة أنهم وجدوا هناك أعداءهم المنتصرين ، وكان هو وحده القادر على أن يقول لهم جميعا ما يعتقد أنه الصواب ·

لم ترهبه قوة المنتصر ، ولا أضعفه بؤس المنهزمين ، وكان هو وحده القادر على أن يرى تجربة الحرب بين الفرقاء من كل جوانبها ،

ليس فقط كما يراها المنتصر أو المنهزم ، وكان هو وحده القادر على أن يرى تلك اللحظة التى تسبق الحرب ، والتى كان يمكن عندها أن تتحول الحرب من صراع بين سلاح وسلاح ، الى صراع بين فكر وفكر ، وبين ارادة وارادة ، وبين نظام ونظام ، وبين حق وحق ٠

وكان هو القادر على أن يقول لهم : عند هذه اللحظة كان يجب أن تلتقوا جميعا بلا سيوف ، عند هذا الخيط كان يجب أن تتوقفوا ٠

وقال المنهزمون : لم يكن هذا الخيط بمثل هذا الوضوح ولم تتوقف هذه اللحظة سوى لحظة ٠

قال للمنهزمين : الذى أعماكم عن رؤيتها ورؤيته ، هو أنكم كنتم تريدون أن تحسموا الخلاف لصالحكم ، لتستريحوا بعد ذلك من الاختلاف ومن الحرية ٠

ثم التفت الى المنتصرين قائلا : تعتقدون أنكم ظفرتم بهذه الراحة ، الى متى تعتقدون أن ذلك سيبقى لكم ؟

ـ طالما بقى فى أيدينا هذا السلاح ٠

ـ بقاء هذا السلاح فى أيديكم دليل على أنكم لازلتم خائفين ، ودليل على أنكم تشكون فى أن انتصاركم يعنى انتصار صوابكم ، وانتصار حقيقتكم ٠

ـ ممن نخاف ؟ ولماذا نشك فى حقيقة منتصرة ؟

ـ اسألوا أنفسكم ، واسألوها مرة ثانية ٠ لماذا جئتم الى هنا ، الى بيتى ، رغم انتصاركم ؟

ـ لنؤكد لك أن النصر لا يفسدنا ، وأننا مستعدون لأن نفسح لك بيننا مكانا ، وأن الوقت لم يضع بالنسبة لك ٠

ـ ولكننى لم أترك مكانى يوما لمنتصر قبلكم · ومرة ثانية واجهوا أنفسكم بهذا السؤال : ما حاجتكم الى ما دمتم تشعرون بالحاجة الى ما فى أيديكم من سلاح ؟ وحين تجدون الاجابة الصادقة فلن تكونوا فى حاجة الى وجودى بينكم لكى أكون معكم ·

★★★

كانت تلك آخر مرة أذكر أننى رأيته فيها ، ذلك الصديق الذى كنا نعتز بصداقته ، ونرى أنها فى حد ذاتها مغنم كبير · واذا كان هناك من يذكر بوضوح ما الذى جرى بعد ذلك فليذكرنى به ·

أذكر أننا كنا نتسلل الى بيته زرافات ووحدانا ، ولكننا لم نظفر مرة واحدة بلقائه ، البعض كان يقول لم نجد البيت ، والبعض كان يقول لم نجد الرجل ·

وتعددت أقوال الناس ، وتفسيراتهم ، وانتشرت الاشاعات ، بعضهم قال : لقد ترك بلادنا وسافر الى بلاد أخرى ·

بعضهم قال انه سيعود ·· من سفره الطويل والبعيد ·

بعضهم قال : ان الذى سيعود أحد أولاده أو أحفاده ·

هناك من يؤكد أنه لم يتزوج ، وهنا من يزعم أنه مضى دون خلف ·

اننى أيها السادة فى حاجة شديدة الى لقائه ، وأكاد ألمح فى عيونكم نفس الحاجة ، أكاد ألمح فى عيونكم نفس الرغبة فى تصديق أنه لم يمت وأنه سيعود ·

فاذا كان منكم من يعرف أخبارا عنه ، اذا كان منكم من لايزال يذكر ملمحا من ملامحه ، نبرة من صوته ، شيئا يدلنا على طريقه

فليذكره لى . بدأتم تضيقون بسؤالى عنه . بدأتم تلحون فى السؤال عن السبب الذى من أجله أبحث عنه .

بدأتم تبتسمون تلك البسمة الشريرة التى تنم عن أنكم تعرفون السر . سر سؤالى المضنى عنه .

بدأتم تحيطون بى فى كل طريق ، بدأتم تمطروننى بالأسئلة عن الفريق الذى أنتمى اليه ؟ عن الغرض الخفى الذى أخفيه ؟

تقولون أنكم مثلى تبحثون عنه ؟ عن الصديق الذى كنا نعتز بصداقته ؟

تقولون انكم مثلى تبحثون عنه لنفس الغرض ؟

تعنون أنكم مثلى تلقيتم نفس التهديد بالقتل مالم تقتلوه .

تعنون أنكم مثلى وعدتم بنفس الجائزة ، اذا جئتم به حيا أو ميتا ؟

حسن اذن ... لماذا تهتمون بالسؤال عن الفريق الذى أنتمى اليه ؟

لقد أصبحنا جميعا فريقا واحـــدا ، ولـــكن دون أن ننسى ، بفضله .

آخر السهرة

فى تلك الليلة كنت عائدا من سهرة مع بعض الأصدقاء فى ساعة متأخرة ، أغالب شعورا بالتعب والرغبة فى النوم ، لم أكـــد أنحرف بالسيارة عن الشارع الرئيسى الى الشارع الجانبى الذى أسكن فيه ، حتى بدأت أشعر كأننى أدخل فعلا فى الفراش ٠

استرخت يداى وقدمى على عجلة القيادة ودواسة البنزين ، وبدت السيارة وكأنها تسير وحدها فى شارع هادىء وخال من المارة

ـ تتوزع على جانبيه السيارات التى يركنها أصحابها أمام بيوتهم ـ وكأنها (سيارتى) ستقف وحدها أمام البيت الذى تعرفه وتألفه ٠

هل غفوت للحظة ؟ أم شرد ذهنى عن الطريق فلم أبصر هـذه القطة ـ التى لابد قد برزت فجأة من تحت احدى السيارات الواقفة

بجوار الرصيف ـ الا بعد أن صارت فى منتصف الطريق تماما أمام سيارتى ٠

متى تنبهت لهذه القطة البيضاء التى جاءت لتوقظنى ، لترقظ كل خلية فى جسدى ؟ ٠

متى لاحظت أن المسافة التى بين السيارة والقطة تسمح لها بالعبور فى سلام ، لو ظلت سائرة فى طريقها ، فعرض الطريق ضيق ، والسيارة غير مسرعة ؟ ٠

أشعلت النور الأمامى الكبير لأستحث القطة على الاسراع فى سيرها ، لكن المفاجأة التى لم أكن أتوقعها أبـدا ، هى أن القطـة اللعينة توقفت تماما فى منتصف طريقها ، وأدارت رأسها المستدير فى مواجهة السيارة ، ومواجهة الضـــوء ، ودون أن تطرف عيناها ، وكأنها تريد أن ترانى ، أو تريدنى أن أراها ، كأنها تريد أن تقـول شيئا ، تقوله برجاء وتوسل ٠

كيف أوقفت السيارة ؟ ومتى ؟ ٠ وما الذى حدث ؟ من الصعب أن أعيد ترتيب ماجرى ، بل من الصعب أن أتصور أنه كان هناك نوع من الترتيب ٠ ففى لحظة واحدة حدث كل شىء ، وانتهى كل شىء ٠ فحين توقفت القطة تماما فى عرض الطـــريق ، حين رأيت عينيها المستديرتين فى شريط الضوء تنفذان الى قلبى الملىء بعيون القطط الملونة ، الملىء بالقطط السمراء والبيضاء والمرقطة ، حين رأيت فى عينيها اصرارا على الوقوف ، كان لابد أن أوقف السيارة قبلها بأى ثمن ٠ وهكذا كان على أن أكتشف فى جزء من الثانية أن السيارة التى أقودها لاتبصر القطة ، ولا تبالى بنظرة الاصرار فى عينيها ، وأنها تخضع لقانون آخر لا مكان فيه لعيون القطط ، وأن على أن أنقذ القطة من ذلك القانون ٠ أن أنقذ تلك القطة التى تبدو وكأنها تتمرد على قوانين الحياة ، أو لعل هذه القوانين تعطلت فيها فجأة فبدلا من أن تستحثها على السير ، وقفت بها فى عرض الطريق ٠

وفى الحق أننى لم أكن أعمل وفق قوانينى الخاصة لأنقذ قطة واحدة ، فكل القطط التى ربيتها وأحببتها طوال حياتى ، والتى كنت

أصحو من النوم على أصابعها تشد أصابع قدمى ، وعلى ملمس شعرها الناعم وهى تتسلل الى فراشى تلتمس الدفء والاهتمام ، والتى كنت أمضى أجمل الأوقات أتأمل طريقتها فى تنسم هواء الصباح البارد ، وهى تقف على حافة النافذة فى الطابق الثالث ، دون أن تخشى السقوط ، وتغمض عينيها فى مسرى النسيم الذى يتخلل شعرها ، وهى تقف أحيانا جامدة ، كتمثال ، ثم تختفى كشبح ، وتدل على مكانها الخفى بهريرها الرتيب ، أو بانعكاس الضوء على عينيها الملونتين ·· كل هذه القطط كانت فى خطر حقيقى يتهددها فى تلك الليلة ، وأحسست بها كلها تتقافز فى داخلى طلبا للنجاة ·

هل ينجح قانونى الخاص فى السيطرة على قانون السيارة الذى يعمل فى حياد تام ، وعلى قانون القطة الذى يبدو وكأنه أصابه خلل مفاجىء ؟ ·

كل شىء الا أن تموتى أيتها القطة ، كل شىء الا أن أكون قاتلك ·

حاولت أن أجعل المكان الذى تقف فيه القطة ساكنة جامدة يقع فى منتصف السيارة تماما ، بحيث أمر فوقها دون أن تصاب بأذى ، لو لم أنجح فى ايقاف السيارة قبلها ·

لكن هل تفعلها هذه القطة المجنونة ، وتبقى جامدة فى مكانها ، أم يصل الجنون الى قمته فتتحرك فى هذه اللحظة وحدها ؟ ·

السيارة لم تتوقف بعد تماما ، والقطة لاتريد أن تتحرك · عيناها لاتطرفان · صوت العجلات الزاحفة لايهزها · لكل من يملك الحق فى أن يقول كلمة أخيرة فما الذى تريد هذه القطة المجنونة أن تقوله فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ هل تجن الحيوانات حقا ؟ وهل تفكر بالانتحار ؟ أنا الذى ألامس الجنون لأننى رأيت فى جزء صغير من الثانية ما لا أقدر على فهمه · لأننى أرى واحدا من قوانين

الحيـاة لا يريد أن يعمـل · لأن مجموعة من القوانين التى لا أملك السيطرة عليها كلها توشك أن تصطدم فى داخلى ، تتحطم ، وربمـا تحطم روحى معها فى ساعة متأخرة من الليل ·

أنا الذى سوف ألامس الجنون لأننى ، لجزء آخر صغير من الثانية ، أبدأ أفكر بالأرواح الشريرة التى يمكن أن تتقمص جسـد الحيوان ، وتظهر للانسان فى الليل · كل هذا فى لحظـة واحـدة لاتريد أن تنتهى ·

كيف ومتى أدركت أن السيارة قد توقفت تماما ، دون أن تغيب القطة عن ناظرى تحت مقدمة السيارة الزاحفة كالموت ؟ وأن الشىء الفظيع الذى كنت أخشى حدوثه لن يحدث ·

كيف ومتى تحرك شخص آخر فى داخلى لينظر فى مرآة السيارة العاكسة لأطمئن الى أنه لاتوجد سيارة أخرى قادمة ورائى ، يقودها رجل آخر متعب ، يظن مثلى أن الطريق خال من المارة ؟

لم يكد الرجل الآخر يستشعر الطمأنينة حتى استرخيت تماما فى مقعدى ، كنت أفكر فى النزول من السيارة لأحاسب هذه القطة اللعينة على مافعلته بى ، وربما حين تمتد يدى الى شعرها الناعم يتحول الحساب الى عتاب · ربما أصابها مكروه مفاجىء · ولكننى وجدت نفسى عاجزا عن الحركة ، فما رأيته ، وفكرت فيه ، وشعرت به فى هذه اللحظة الخاطفة ، قد أبهظنى حقا ، وكاد أن يهد قواى ·

لعلها هى الأخرى كانت مثلى تحس بأشياء كثيرة ، وربما تفكر بأشياء كثيرة أعجزتها عن الحركة ·

من الذى قال ان الحيوان لا يفكر لأنه لا يتكلم ؟ ·

والآن وقد وقفت السيارة تماما ، لم لا تتحرك هذه القطة اللعينة من مكانها ؟

ألم تدرك بعد ـ هى التى كنت أظنها تفكر ـ أنها نجت من موت محقق ؟ ·

أتريدنى حقا أن أنزل من السيارة لأدعوها لعبور طريق كانت تهم بعبوره ؟ ·

أى سخافة جعلتنى لا أتخير الا هذا النوع الغبى من الحيوانات لأذوب فيه حبا ؟

كنت أظن أننى الذى أوقفت السيارة ، وأنقذت حياة هذه القطة الشريرة ، ولكن هذه القطة الملعونة تريدنى أن أشعر بأنها هى التى أوقفتنى فى مكانى ولا تزال ·

وأننى أنقذتهـــا من الموت لتسلمنى بدورها الى ذلك الشعور المخيف بالخوف ؟ ·

لم لا أعترف بأننى عاجز عن ترك مكانى خوفا ، وأننى أصبحت خائفا منها بعد أن كنت خائفا عليها ؟ ·

لم لا أصرخ طالبا النجدة من ذلك السائق المتعب الذى كنت أخشى مجيئه من خلفى فى ساعة متأخرة من الليل ؟ أمن المعقول أن يكون جميع الناس قد ناموا حقا فى مثل هذه الساعة ؟

أهذه مدينة من البشر أم من الدجاج ؟

يبدو أنها (القطة) أدركت أخيرا معنى مافعلته بى ! أو معنى ما فعلته من أجلهـا !

فقد تحركت أخيرا · تحركت قبل أن تتحرك فى داخلى صرخة الخوف المخيفة لتوقظ النيام ·

أدارت رأســها الى الجهــة التى جاءت منها ، وفجأة رأيتهم قادمين · من تحت السيارة التى جاءت من ناحيتها · أربع قطط

صغيرة بيضاء بلون أمهم ، لايزيد عمرها عن أربعة أسابيع ، أعرف جيدا عمر القطط الصغيرة · كيف تكون ؟ وماذا تفعل فى الأسبوع الأول ، والثانى ، والثالث ، والرابع ؟ انهم الآن فى مرحلة مواجهة الحياة · والعبور الى الجانب الآخر ، تقودهم أمهم الى الدنيا بلا خوف ، ودون كلمات ·

استقبلتهم أمهم فى منتصف الطريق مشت بجوارهم تعبر الشارع فى هدوء ، واختفت معهم تحت سيارة فى الجانب الآخر ·

حين بدأت أدير محرك السيارة ، وأمضى فى اتجاه بيتى لأدخل فى فراشى بحق هذه المرة ، لم أجد النوم الذى كنت أغالبه · كنت أشعر بصفاء عجيب من ذلك النوع النادر الذى يغمر الكون والانسان ، وحين يجىء يعز عليك أن تتركه وتنام !!

ذلك الوجه وذلك الرائحة

لاأدرى متى بدأت أشم تلك الرائحة ؟

رائحة دخان ينبعث من شيء يحترق · لم تكن حادة أو نافذة ، لكنها بعد أن تنبهت اليها بدت ملحة ومستمرة ، دون أن تفصح عن طبيعة الشيء المحترق أو مكانه ·

ولأننى فى تلك اللحظة كنت أقود السيارة (زوجتى بجوارى تتحدث فى أمر لم يكن يروق لى أن تنبشه) فقد وجدتنى أسألها ، وأنا أهدىء من سرعة السيارة ، وأنحرف بها الى يمين الطريق ، قبل أن أتوقف تماما :

ـ أتشمين تلك الرائحة ؟

ـ دائما تغير الحديث ، كلما فتحت معك هذا الموضوع ·

لم أرد على زوجتى ·

نزلت من السيارة ، رفعت غطـــاء المحـــرك ، جعلت أبحث عما يمكن أن يكون مصدرا لتلك الرائحة ، سرعان ماكففت عن البحث حين تأكد لى وأنا واقف فى الطريق أن الرائحة تملأ الجو كله من حولى ، تلفت فى كل الجهات فلم ابصر مايشى بمكان الحريق · كان الوقت مساء ، ورائحة الدخان لا شكله هى مايدل عليه ، وحتى حين كان الدخان يظهر حول مصابيح الطريق المضاءة ، فقد كان يبدو فى شكل موجات الضباب التى تنتشر أحيانا فى مثل هذا الوقت من السنة ، مسببة الاحساس باللزوجة والاختناق ·

زايلنى القلق على السيارة ليحل محله قلق شامل غامض عن مصدر تلك الرائحة التى تملأ الجو كله فى هذا المساء ·

قالت زوجتى بعد أن عدت الى مكانى فى السيارة :

ماذا حدث ؟ عن أية رائحة تسأل ؟

ـ رائحة شىء يحترق ·

ثم تابعت حين بدا على وجه زوجتى ، وكأنها فجعت فى اجابتى فلاذت بصمت انكارى :

ـ لعلهم يحرقون هنا أو هناك أكوام القمامة ·

حينذاك قالت زوجتى بعصبية :

ـ كان من الأفضل أن تواصل السير لنبعد عن تلك المنطقة كلها ·

قلت متعلقا بأمل واه :

ـ اذن فأنت تشمين مثلى تلك الرائحة ؟

ـ فى الحقيقة لا أشم شيئا ، ولكن ما دمت أنت تفعـل ذلك فلماذا لا أصدقك ؟

ثم تابعت بلهجة من يريد أن ينهى الموضوع :

ـ الأفضل أن تسرع لنلحق المتجر قبل أن يغلق أبوابه ٠

لكنى لم أسرع ٠ لم أقدر على الاسراع ٠ كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن أسمع صوت سيارة الاطفاء ، أو الاسعاف أو النجدة ، وهى تمرق بجوارنا ٠

كانت الرائحة تسير من حولى بأسرع من سرعة السيارة ٠ بدأت ألاحظ بقية السيارات وهى تلحق بنا وتسبقنا ، والناس فيها يتحدثون أو يضحكون ٠ لايبدو على وجوههم فضول أو ترقب أو قلق ٠ لعلهم لم يشموا أبدا تلك الرائحة المجهولة المصدر ، وكذلك المارة ٠ كانوا يسيرون فى بطء كأنهم خرجوا ليشموا الهواء فحسب !

حين اقتربنا من المتجر الكبير ، كنا قد تجاوزنا المنطقة بأسرها ، وكنت قد بدأت آلف تلك الرائحة ، كأنها جزء من الجو فى مثل هذا الوقت من السنة ٠٠

حين تركنا السيارة بدأت أرى الدخان أكثر مما أشمه ، فالمكان غارق هذه المرة فى الضوء ، والناس يدخلون ويخرجون ، وطبقات الدخان تتراقص فى الأضواء وعلى الوجوه ، تخفى الملامح ، أو تظهرها ، لا مبالية ، أو ضاحكة ، أو مهتمة بأمر آخر غير تلك الرائحة !!

نظرت الى زوجتى متوقعا أن أرى نظرة فزع أو على الأقل نظرة تصديق لما قلت منذ قليل ٠ لكنها كانت مشغولة عن الأمر كله بتسوية فستانها وشعرها ٠

قبل أن افتح فمى بكلمة سمعتها تقول وهى تبتسم :

ـ لعلك تستمتع الآن برائحة الدخان الحقيقية ٠

ـ متى كانت رائحة الدخان تبعث على المتعة ؟

قلتها بفزع ٠

ـ حين تكون منبعثة من فحم تشوى عليه قطع الضأن !

قالتها زوجتى بطمأنينة زادت من فزعى ٠ كنت أعرف أنه يوجد على مقربة من المتجر الكبير محل للشواء ، وبالتأكيد تختلط روائح الضأن المشوى بروائح الحريق الآخر الذى لايريد أن يفصح عن مكانه ، والذى لايريد أحد أن يشعر به ٠

شعرت بعبث المحاورة معها ، كنت قد وعدتها بعشـــاء فى « كازينو الشاطىء الذهبى » ، ومنذ قليل رفضت الحديث معها فى موضوع لا أحب سيرته ، وسوف تظن أننى أختلق فرصة للنكد أو الشجار ٠٠

قلت مسايرا ومداريا وساوسى :

ـ لايهمك ٠ سوف نتعشى شواء فى الكازينو بعد أن نخرج من المتجر ٠

فى داخل المتجر الكبير كنت أعتقد أننى سوف أستريح لبعض الوقت من تلك الرائحة ، ومن التفكير فيها ٠ سرت بجوار زوجتى ننتقى حاجاتنا ، ونضعها فى عربة اليد التى نســـوقها فى ممرات المتجر ٠ من جنبات المتجر تنبعث موسيقى هادئة وناعمة ، تحمـل الناس على أن يتحدثوا فى همس ، وربما هى التى تشغلهم عن تلك الرائحة التى بدأت أشمها هـذه المرة ، مختلطة بروائح الأجبـان ، والفاكهة ، واللحوم ، والعطور ، والصابون و ٠٠

ـ ما رأيك فى هذا النوع من الجبن ؟

قالتها زوجتى وهى تمد لى يدها بقطعة من الجبن على طرف سكين صغير أخذته من البائع ٠

كانت قد ذاقت قطعة منه ، وملامحها تنطق بالاعجاب بهـــذا النوع ، وترغبنى فى شرائه · لم أكن أشجع هذه الطريقة فى اختيار المأكولات ، لكنى تذوقتهـــا مجاملة لزوجتى ، ووجدتنى أقول لها باستسلام :

ـ رائعة · خذى منها ماتحبين ·

ماذا يحدث لو قلت لها ، لزوجتى ، أن هذا الجبن يبدو وكأنه منقوع فى تلك الرائحة ، التى لاتريد أن تعترف بوجودها فى الجو ؟

أنا لا أناقش زوجتى حين ينحصر الحوار بينى وبينها ، فكيف أناقشها فى قضية يقف الى جوارها فيها كل الناس ؟

حين تدرك أنك وحدك ترى أو تسمع أو تشم ما لا يحس به سواك ، فأنت على حافة الجنون ، أو غارق فى حلم كئيب !

ولو كانت لك فرصة الاختيار فأنت سوف تتمنى مثلى أن يكون ما تراه أو تسمعه مجرد حلم ثقيل ·

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى أحلم فيها ، وأدرك خلال حلمى أننى أحلم ، دون أن يوقظنى ذلك الادراك من النوم ·

عشت مرارا تلك التجربة ، وعانيت فيها تلك الحـرية المخيفة التى يتيحها لك ذلك الضوء الشاحب من الوعى ، وأنت فى ذروة حلمك ·

وفى أحلامى هذه كنت أرفع صوتى بما كنت أخاف من مجرد التفكير فيه ، وأقفز من الأعالى ، وأواجه المخاطر ، وأصفع الوجوه التى أتجنب رؤية أصحابها ·

لم لا أنتهز الفرصة وأقول لزوجتى رأيى الحقيقى فى الموضوع الأول الذى كنت أتجنب الحوار معها فيه ؟

لم لا أقول لها : اننى أحتقر أهلك وأهلى معا ·

أحتقر صلحهم وخصامهم ، وصوتهم العالى الذى لا يقول شيئا ، واصرارهم على أن يرهنوا زماننا لحساب زمانهم ، وأننا مادمنا قد تزوجنا ، فمعنى ذلك أننا بلغنا سن الرشد ، ولن نسمح لهم ··

ـ فيم تفكر ؟ وماذا تنتظر ؟

قالتها زوجتى وهى تنظر لى فى دهشة · كان المحاسب قد فرغ من عمل الحساب ، وينتظر من يدفع له ثمن المشتروات · وكان الحمال قد فرغ بدوره من تحميل حاجاتنا على العربة التى يدفعها أمامه الى مكان السيارة ، وينتظرنا بدوره لنقوده الى مكانها · وهأنذا أسرح حتى فى داخل الحلم ·

نقدت البائع حسابه وتقدمت الحمال الى باب المتجر فى طريقنا الى السيارة ·

فى تلك اللحظة ، أحسست أننى على وشك أن أصحو من حلمى أو أدخل فى حلم أشد قتامة · هذا الحمال أكاد أعرفه · هذا الوجه ؟ توقفت قليلا · التفت اليه ، أستوثق مما أرى ، لو رفع رأسه الى وجهى لعرفنى · هذا الوجه الأسمر ، والأنف العريض ، والأسنان المفلوجة · وتلك الشفة المدلاة أليس هذا هو « حسن أبو شفة » ؟ ·

كنت أريد أن أعابث الحلم ، ولكن الواقع بدأ يعابثنى معابثة أنكى وأشد ·

الحمال لا يرفع رأسه · عيناه على قدمى ، يتبعنى ، يداه تدفعان عربة النقل المحملة بمشترواتنا ، انه بثيابه الزرقاء المخصصة للحمالين التابعين للمتجر يبدو كأنه جزء من المؤسسة ، ينفصل عنها ليعود اليها بعد قليل ·

أهذا الذى يعابثنى حلم أم واقع ؟ أم أنه حلم أشد مكرا ودهاء ، فحسن أبو شفة الذى أعرفه كان رجلا ناضجا حين كنت أنا طفلا فى القرية • قد يصلح هذا الحمال الشاب ابنا له ، لكن ما الذى يجىء بابنه هذا من قريتنا الى هذه المدينة الساحلية النائية عند الحدود ؟

كنا قد خرجنا من المتجر الكبير لأرى وأشم من جديد رائحة الدخان تواصل حفلها الراقص فى الأضواء •

وانفجر فى رأسى شىء مخيف تذكرته فجأة ، ذكرنى به « حسن أبو شفة » ، فهو مثلى يعرف تلك الرائحة ، يعرفها جيدا • كان مثلى أول من شم تلك الرائحة التى كانت تملأ سنوات طفولتى وصبای •

« كنا فى وقت الظهيرة • الحر جاثم يكتم الأنفاس ، والناس يلوذون بالدور والأشجار ، والبهائم راقدة تجتر طعامها ، أو دائرة فى السواقى أو الأجران ، والشياطين تعرف وقت القيلولة فلا تغادر جحورها • الصبية وحدهم الذين يتسللون من بيوتهم حين تغفى عيون الأهل ، يلعبون فى الأجران المليئة بالقش ، ويستحمون فى الترع ، ويتسلقون أشجار التوت والجميز •

فى ذلك اليوم شممت تلك الرائحة ، كان الوقت الذى يفصل بين رؤيتى للدخان ورؤيتى للنيران أقصر من أن يتسع لتلك الصرخة التى احتبست فى صدرى • رأيت وسمعت « حسن أبو شفة » الذى لم يكن طفلا ولا شيطانا ، ولكنه نفر من أنفار الشهر يندفع صائحا وصارخا وفى يده المذراة التى كان يقلب بها القش ، يحاول وحده أن يطفىء بها النيران المجنونة التى كانت تنتقل بين أكوام القش فى سرعة الريح •

رأيت أسراب الطيور وهى تفزع من أعشاشها وتصرخ فى السماء المليئة بالدخان ، رأيت الكلاب والقطط والدجاج وهى تجرى

على غير هدى هنا وهناك ، وقبل أن يغادر الناس بيوتهم · وسمعت أصوات البهائم تخور فى الزرائب ، قبل أن يتنبه أصحابها ويفكوها من حبالها لتنطلق الى الحقول هاربة من النيران · وقبل ذلك كله رأيت « حسن أبو شفة » الذى أدرك فى لحظة عبث محاولته لاطفاء الحريق ، وهو يقطع بمنجل كان يجذب به أكوام القش ، يقطع حبال البهائم المربوطة فى النورج ، وكانت البهائم تجره خلفها ، وهى تحاول النجاة من الحريق ، وتكاد تدوسنى فى طريقها ·

رأيت « حسن أبو شفة » يجتذبنى من ذراعى وأنا مسمر فى مكانى لا أقوى على الحركة ، وفى طريق البهائم الهائجة ·

لو سألت الحمال الذى ينقل مشترواتنا الى السيارة عن ذلك اليوم ، لما أنكر شيئا مما جرى فيه · بالتأكيد سمع من أبيه قصة ذلك اليوم ·

لو سألته عن اسمه « ومهما يكن اسمه » فسوف ينتهى بحسن أبو شفة ·

ولو سألته عن بلده لوجدته من قريتى ؟

أبوه وأنا شاهدا ذلك اليوم ، ولكنه لايتوقف الا أمام السيارة · ينقل الى خزنتها الخلفية حاجاتنا ، ويرفع الى وجها من الماضى ، لايتوقع الا كريم الأجر ، هو مثل الجميع هنا لايشم تلك الرائحة ، ولعله يحلم مثل زوجتى بشواء من المحل المجاور · لعله مثلها لايشم سوى رائحة الضأن المشوى ·

لم ينته الحريق فى قريتنا الا بعد أن انتهى كل شىء ·

ظلت رائحة القرية المحترقة · رائحة القش والتبن والأخشاب · شهورا طويلة تملأ سماء القرية وأرضها تختلط بالطعام والشراب ، يشمها أهل القرية ، وأهالى القرى المجاورة الذين يمرون بها ، وحتى

بعد أن أعيد بناء قريتنا ، وترميم ماتبقى منها ، ظللت أشم تلك الرائحة فى أحلامى ، وأحيانا فى يقظتى ، وأسمع صرخات « حسن أبو شفة » فى ذلك اليوم · لقد كف بعدها عن الصراخ ، ولكنه ظل يمشى ذاهلا فى طرقات القرية ، يحكى حتى لمن لايسمعونه قصة ذلك اليوم ، ويؤكد للجميع أن ذلك لم يحدث بسبب الريح ، بل لأن قريتنا قد فعلت أشياء كثيرة تستحق بها غضب الله · لم يكن ماجرى حريقا ، ولكنه غضب ، وغضب الله لاينزل الا بمن يستحقه ·

خذلنى الحمال الذى تركنى وعاد الى المتجر يسوق عربته الفارغة دون سؤال أو جواب ·

خذلنى الناس الذين لايشمون سوى رائحة الشواء ·

خذلنى الحلم والواقع حين لم تظهر ألسنة النيران بعد ألسنة الدخان ·

خذلتنى زوجتى حين قالت وهى تجلس بجوارى :

ـ أنت تبدو متعبا هذه الليلة ، ولكنك سوف تستريح حين نشم هواء البحر المنعش فى « كازينو الشاطىء الذهبى » ، ونتعشى على أنغام الموسيقى · سمعت أن الكازينو يقدم فى هذه الأيام عروضا مدهشة ·

ثم أضافت حين لم تلمح على وجهى أثرا طيبا :

ـ وسوف يكون العشاء على حسابى ·

تذكرت أنها تقول نكتة ، وأنه كان يجب على الأقل أن أبتسم لكنى لم أرد · زوجتى لا تعرف « حسن أبو شفة » ، ولن يروق لها أن أروى حكايته ، ولن تصدق أى شىء أقوله لها هذه الليلة · استسلمت لحديثها الذى لم أكن أسمعه · استسلمت لنداء البحر · الهواء هناك نقى بلا شك · من يقوى على أن يعكر هواء البحر ·

ولو طاردنا الحريق الى الشاطىء فسوف نجد هناك فرصة للنجاة ، ألا يفضل ركاب السفن المحترقة أن يموتوا غرقا ؟

فى كازينو الشاطىء الذهبى · كانت الموسيقى تنساب حالمة وناعمة ، هواء البحر يحملها الى بعيد · هواء البحر يطرد حتى رائحة الشواء التى يشتهر بها الكازينـــو ، مثلما يشتهر بمفاجآت عروضه المثيرة ·

شعرت بنوع غريب من الراحة ، كدت أقبل دعوة زوجتى الى الرقص ، لولا أن جاء النادل ، ووقف فى أدب جم ينتظر أوامرنا ·

قالت زوجتى وهى لاتزال محتفظة بروح المرح :

ـ مادمت أنا التى سأدفع الحساب دعنى أختار العشاء ·

راحت تنتقى من قائمة الطعام ، وتأمر النادل وهو يسجل فى دفتر صغير بيده ·

تفعـل ذلك وهى تبتسـم · ترفـع رأسها الى النـادل ، وهى لا تزال تبتســم ·

صحيح أن زوجتى لم تر فى حياتها « حسن أبو شفة » مرة واحدة ، ولكن كيف لم تدرك بعد أن هذا النادل هو نفســه الحمال الذى تركناه منذ لحظات عند المتجر · هل خدعها بحق هذا القفطان الأحمر الذى يرتديه ؟ هل تخدعها هذه الأشرطة الصفراء التى تطرز أطراف الصدر والأكمام ؟ أليس هذا هو نفس الوجه الأسمر والأنف العريض والأســنان المفلوجة ؟ صحيح أنه يملك لهجــة النادل ، وابتسامته المحسوبة ، ونظرته المدربة ، وانحناءته الرشيقة ، ولكن متى تعلم ابن حسن أبو شفة القراءة والكتابة ؟

ـ سوف نرقص حتى بعد العشاء ·

قالتها زوجتى وهى تمد يدها · ربما يجدى حوار الأيدى حين تعجز الكلمات ؟ قمت معها مستسلما · هذه ليلة للاستسلام · ما أروع أن يستسلم الانسان للاشىء ·

صالة الرقص تمتلىء بالنغم ، والوجوه ، والعيون ، والأجساد ، والأيدى الغير حقيقية ·

الرائحة هى الأخرى تبدو هنا غير حقيقية · تذوب فى هـواء البحر ، وفى سواد الليل والمياه ، ويحملها الهواء مع الموسيقى الى بعيد ·

فجأة تصمت الموسيقى ·

فجأة تعـود الموسيقى ·

يرتفع من نفس الميكرفون الذى كان يصدح منذ لحظة صوت مدير الكازينو :

ـ الجمهور الكريم · سوف نقدم لكم بعد لحظة أكثر عروضنا اثارة · تفضلوا بالخروج الى شرفة الكازينو لتشاهدوا العرض · انه يقع فى قلب البحر · لاتنزعجوا · فهدفنا هو تقديم تسلية مثيرة · انه مجرد عرض · سفينة تحترق فى البحر ، وركابها يقذفون بأنفسهم الى المياه طلبا للنجدة · انه مجرد عرض فاستمتعوا فقط بما ترون · أنتم لا تنزعجون حين ترون ذلك فى الأفلام · يمكنكم أن تقولوا انه عرض مسرحى حى ، ان كازينو الشاطىء الذهبى لايدخر وسعا فى تسليتكم رغم الظلام ، فالحريق الذى يلتهم السفينة يضىء كل شىء · ورغم ضخامة تكاليف العرض ، فان مانحرص عليه هو تقديم تسلية مثيرة حقا ·

أيمكن أن يكون هذا العرض المثير حقـــا هو مصـــدر تلك الرائحة ؟

قلتها وكأنى أخاطب نفسى ٠

قالت زوجتى ٠ وكانت تلك أول مـــرة تعترف فيهـــا بتلك الرائحـــة :

ـ نعم ٠ ربما كان ذلك حقا ، فلا تقلق ٠ المهم أن تستمتع بالعرض ٠ ألم أقل لك ٠ ؟

كنت قد أصبحت غير قادر حتى على القلق ٠ غير راغب حتى فى التفريق بين الحلم واليقظة ٠ لا أحد لايريد أن يوقظنى من الحلم٠ العرض لايريد أن ينتهى ٠ صرخاتى تختنق فى داخلى ٠ صرخات ركاب السفينة تغرق معهم ٠ النادل يقف خلفنا فى هدوء ويهمس :

ـ سيستمر العرض طويلا ، والعشاء جاهز ، يمكننا أن نحضره لكم فى الشرفة ، لتأكلوا وأنتم تتفرجون ٠

ووجدتنى أندفع أمام الجميع الى قلب البحر ٠ كانت تلك هى الحرية الوحيدة المتاحة لى ٠

قلت لنفسى : لو كان ما أراه حلما فلتكن تلك نهايته ٠ ولو كان واقعا فهذه أفضل نهاية ٠

كان آخر ماسمعته بعد ما خلته صرخة زوجتى هو صوت يرتفع فى الميكرفون :

ـ لاتنزعجوا أيها السادة ٠ فذلك أيضا جزء من العرض ٠

الجميع يربحون الجائزة

متى حدث ذلك ؟ لا أذكر على وجه التحديد ، كل ما أذكره هو أن اليوم كان شديد الحرارة ـ رغم أننا كنا لانزال فى فصل الربيع ، ولعل الساعة كانت تشير الى الثانية بعد الظهر ، وأن ذلك اليوم قد مضت عليه سنين طويلة ، دون أن تنجح هذه السنين فى مسح صورته من ذاكرتى ٠

ما الذى حدث فى ذلك اليوم ؟

لا شىء خطير أو مثير ، ولكنه شىء بقى فى الذاكرة يتحدى كثيرا من الأشياء الخطيرة والمثيرة التى حدثت بعد ذلك ، والتى نسيتها تماما ، فما أقـــل الأشياء التى تبقى فى الذاكرة محتفظة بملامحها ، بكلماتها ، بما فيها من روح المرح ، أو روح الأمـــل ، أو روح المأساة ، تبقى فى الذاكرة ، تلح عليك أن ترويها ، أو تكتبهـــا ، كأنما ليصبح من حقك بعد ذلك أن تنساها تماما أو تلقى على الآخرين مسئولية ذلك ٠٠

كان الميدان صغيرا ، رغم أنه يغص بحركة السيارات والمارة ، يربط بين شارعين مهمين ، دون أن يحظى بشرطى يراقب مدى احترام الركاب والمشاة لاشارات المرور ٠

ربما لهذا السبب ، وربما لأن العجوز كان يجهل قواعد السير فى مثل هذا الميدان ، حدث ما حدث فى ذلك اليوم ٠

فجأة ، ارتفع من قلب الميـــدان صراخ عجلات تزحف فـوق الأسفلت ، قبل أن تتوقف تماما على بعد خطوة واحدة من العجوز الذى سقط على الأرض ، سقط دون أن تلمسه السيارة ، لعله سقط من مفاجأة الصوت الزاحف ، لعله فقد توازنه حين فوجىء بصراخ العجلات وقد كان يحمل فوق رأسه قفصا مليئا بحبوب البرتقال ، لقد تحطم القفص تماما حين ارتطم بالأرض ، وانطلقت منه حبات البرتقال فى كل اتجاه ، تسابق السيارات التى لم تكن قد توقفت بعـد ٠

خرج سائق العـربة التى توقفت بالكاد أمـام العجوز يسب ويلعن ، ولم يكد يرى الرجل ، حقيقة الرجل العجوز الذى كاد أن يكون ضحيته ، حتى حمله بين يديه الى رقعـة الحشـيش الأخضر التى تتوسط دائرة الميدان ، دون أن يكف لحظة واحدة عن شتمه ، بعد أن وضعه على الأرض راح يتفقد أعضاءه ليطمئن الى أنه لم يصب بسوء ، ويستشهد بمن تجمع حوله من المارة على أن العجوز لم يخسر سوى البرتقال ، وأن عظامه سليمة ، وساعده العجوز على صحة شهادته حين حاول الوقوف ليبحث بنفسه عن القفص المحطم ، وحبات البرتقال الضائعة ٠

فى هذه اللحظة ، كنت قد أصبحت واحدا من شهود الحادث عن قرب ، وكنت مع بقية الشهود نتحول فجأة من شهود لحادث وقع فجأة ، الى مسئولين عن منع لحادث يوشك أن يقع أمام سمع الجميع وبصرهم ٠ وعبثا كنا نحاول أن نمسك بالعجوز الذى لم يكن

يحفل بسلامته بقدر ما كان يفزع لمرأى حبات البرتقال المتناثرة عبر الميدان ، والتى كانت تظهر وتختفى خلال السيارات التى تمرق فوقها وبينها ، والتى ما كان يمكن أن تتوقف الى ما لا نهاية ، فى وقت يشتد فيه الزحام ، وحيث يمكن أن يؤدى توقفها الى ما هو أخطر من كل ما حدث ٠

كان سائق السيارة التى سقط أمامها العجوز قد تركه أمانة بين أيدى الشهود ، ليفسح الطريق بعربته أمام سيل العربات المحتجزة وراءه ، لم يكن من الممكن أن ينتظر هو الآخر نتيجة الحكم فى قضية لا يحكم فيها سوى الشهود ، وتقريبا كان قد حصل منهم على حكم غير منطوق بالبراءة ، وتوارى الحادث الذى وقع خلف الحادث الذى يوشك أن يقع ، كان العجوز يصرخ ، ويلطم وجهه ، ويبكى رزقه الضائع ، وكأنه لم يربح حياته نفسها منذ لحظات ، ويندفع فى جنون نحو الشارع الذى كان يغص بحركة السيارات التى لاتكاد تتوقف من هنا حتى تبدأ من هناك ٠

متى كف العجوز عن محاولاته المجنونة للافلات من الأيدى التى تقبض عليه ؟ متى أرخت هذه الأيدى قبضتها عنه ، وكأنما انتابها الملال أو اليأس ؟ جلس العجوز على الأرض يرمق الميدان غير مصدق، ووقف الشهود يفعلون نفس الشىء ٠

كانت السيارات تواصل سيرها مرة من هنا ، ومرة من هناك ، فى بطء هذه المرة ، وكأن سائقيها جميعا يتلقون أمرا مجهولا لشرطى مجهول بأن يحترسوا فى سيرهم ليتفادوا حبات البرتقال بقدر مايستطيعون ٠ كانت حبات البرتقال تظهر بعد مرور السيارات سليمة فى نفس مواقعها تؤكد أن الشرطى المجهول لايزال يصدر أوامره ، ولايزال نافذ الكلمة ٠

بدوت للحظات غير مصدق لما أراه ، لولا أننى كنت أراه ، أراه يحدث ، فى كل لحظة يحدث ، تأتى السيارة مسرعة من بعيد ،

ثم تهدىء من سيرها ، يلتقط السائق القصة من أفواه المارة ، ثم يبدأ عبوره الحذر مستعرضا مهارته كسائق ، منفـــذا أوامر الشرطى المجهول · كأنما تحول الميدان الصغير الى ميدان لسباق من نوع غريب ، ترسم خطوطه وتحدد معالمه حبات البرتقال ، سباق يفوز فيه من لايدوس بسيارته برتقالة واحد ، وكأنما حرص السائقون جميعا على الفوز بهذه الجائزة ·

من الذى ينظم السباق ؟ من الذى يراقبه ؟ من الـــذى يمنح الجائزة ؟ ولمن ؟ كان جميع المارة يقومون بهذه المهمة ، وكان يكفى أن يخطىء سائق السيارة ، ويتلف برتقالة واحدة حتى يزوم الحشد على جانبى الطريق · ويعلن سخريته من السائق الذى لايعرف كيف يسوق ؟

كانت روح المرح أو اللعب توشك أن تطغى على ·

روح الشفقة ، أو روح المأساة ، ولا أظننى كنت أحلم ، حين خيل لى أننى رأيت العجوز الذى كان منذ لحظات يصرخ ، ويلطم ، وهو يكاد يضحك فى شبه بلاهة ·

الى متى استمرت هذه اللعبة ؟ الى متى بقيت هذه الروح تظل الميدان ؟ تستقبل السيارات القادمة تمزج المرح بالحذر ، واللعب بالمسئولية ، وتجعل من جميع السائقين على اختلاف هوياتهم سائقا واحدا يقود جميع السيارات فوق خط متعرج ، ليفوز فى النهاية باعجاب حشد لم يعد يشعر بوهج الشمس ، ولا بحبات العـــرق ، ولا حتى بالعجوز الذى أصبح مجرد مشاهد للعبة غريبة لايدرى سر نجاحها ·

كانت اللعبة حتى هذه اللحظة خاصة بســـائقى السيارات ، وكان المارة يقومون بدور الحكم ، متى ترك المشاة دورهم ، ليشاركوا فى لعبة أخرى بدت وكأنها الفصل الأخير فى هذه المسرحية ؟

متى بدأ كل واحد من المارة يجمع حبات البرتقال التى فى طريقه ، ليأتى بها ، ويضعها فى كومة ظلت ترتفع بجوار العجوز الذى كان لايزال يحدق فى كل مايجرى غير مصدق ٠

كان ذلك حين هدأت حركة السيارات ، وخف الزحام ، وبدأت مجموعة الشهود التى كنت واحدا منها تبدو هى الأخرى ، وكان عليها أن تبحث عن دور بعد أن فقدت كل أدوارها ٠

لم تعد هناك قضية ، ولا محكمون ، ولا أحكام ، ولا أحداث تقع عليهم مسئولية منع حدوثها ٠

كومة البرتقال لاتزال ترتفع ، والعجوز يتلمسها فى فرح طفولى ، وكأنه يحاول أن يعدها ، وكأنه قد اكتشف فى هذه اللحظة لا تبلها أنه لايزال بخير ، وأنه نجا حقا من موت محقق ٠

قال أحد شهود الواقعة وهو يهم بالسير :

ـ الدنيا لاتزال بخير ٠

قال شاهد آخر بضجر :

ـ كيف تكون بخير ومثل هذا العجوز يحتاج فيها لمثل هذا العمل ؟

ـ ياجماعة أنتم تهربون من مسئوليتكم ، كيف يحمل هذا الرجل برتقاله ، وقد تحطم قفصه ؟ وكيف يواصل طريقه ؟

ـ والله فرصة ، هل تبيعه يارجل أم أنك تحمله الى أحد ؟

قالها أحد الشهود وقد تقدم يتفحص البرتقال ، ويتأكد من سلامته ٠

ـ كما ترى ياسيدى لايزال طازجا ، جمعته بيدى هاتين من على شجره ، وأبيعه قرب محطة الباص ، لكنكم أولى به ، خـذوه بأقل من سعر السوق قرشا ٠

قالها العجوز وهو يسترد روح التـاجر ٠ فى لحظـة تحـول الشهود الى مشترين ، وتتابعت تعليقاتهم :

ـ كيف تبيعنا يارجل وليس معك ميزان ولا أكياس ؟

ـ نأخذه بسعر الجملة ، ثم نقسمه بيننا ٠

ـ مع أن فيه تالفا كثيرا فلنأخـذه بسعر السـوق اكراما للعجوز ٠

ازداد تجمع المارة حولنا ، حـول كومة البرتقال ٠ تحولت صحف الصباح التى كان يتقى بها المارة وهج الشمس الى قراطيس تمتلىء بحبات البرتقال ، تحولت كومة البرتقال الى حفنة قروش فى حجر العجوز أخذ يعدها غير مصدق ٠

ربما كانت هذه أجمل صفقة فى حياته ، مع أنه كاد يدفع حياته ثمنا لها ، وبهذه النهاية كان الجميع ـ ربما لأول مرة ـ فى ذلك اليوم يحصلون على الجائزة ٠ كل على الجائزة التى يستحقها ٠

فى الزحام

المكان ·· ميدان باب الحديد بالقاهرة ، هـــذه مسألة حسمها تمثال رمسيس الذى راح يظهر ويختفى عبر موجـات الرؤوس التى تعلو وتهبط ، كان رأس التمثال يبدو شامخا متعاليا فوق كل شىء ، حتى فى اللحظة التى يختفى فيها عن عينى بسبب الزحام · كنت أراه فى شموخه ، وصمته ، واستغراقه فى الأبدية ، وكأنه لا يشعر ، أو ربما لا يبالى بأمواج البشر التى تتدفق تحت قدميه !!

الوقت : ·· هذا ما لا أستطيع الآن تحديده · قبيل الغروب ·· ربما ·· ! بعد الشروق بقليل ·· جائز ! ففى غير هذين الوقتين يستحيل أن يتجمع كل هؤلاء الناس فى مثل هذا المكان ، ثم لا يندى الجبين بقطرة من العرق · لا أذكر أنه كانت هناك قطرة عرق واحدة ، أو نظرة غضب واحدة ، بل أذكر أن نسمات الصباح أو المســاء هى التى كانت تعبث ببعض الأعلام ، التى لا تكاد ترفع من مثل هذا الميدان الكبير ، لكثرة من يمر به من كبار الزوار لمدينة القاهرة !!

المناسبة : ·· هذا ما لم يفصح عنه شيء أو أحد ·· وان كنت أستطيع الآن أن أقطع بأنها لم تكن مناسبة حزينة على الأقل ، فالروح السائدة وسط الجماهير كان روح حماسة ومرح ، فالأصوات تبدو وكأنها تترنم ، والنظرات تتبادل التأكيد الصامت على أن ما يجتمعون من أجله هذه المرة هو أمر طيب لكل هؤلاء الناس !

وبالنسبة لى كنت قد أصبحت ـ دون أن أدرى ـ جزءا من هذه الحماسة ، وذلك المـرح !!

ولكنى كنت أحتفظ تحت قشرة الحماسة والمرح بخوفى القديم والعظيم الذى كان يتفجر فى داخلى كلما وجـدت نفسى جزءا من الجماهير الصاخبة والهادرة !

كيف جئت الى هذا المكان ، ما الذى أخرجنى من صـدفتى وألقى بى فى هذا البحر الهائج ؟ كان الأمر يبدو كما لو كنت فى حلم حقيقى · كنت فى الحقيقة ، لا فى الحلم ، قد وضعت لنفسى قاعدة ذهبية لا أخرج عليها أبدا · تسألنى ما هى هذه القاعدة؟ دعنى أروى لك ! أول علاقة لى بالزحام · كانت وأنا تلميذ صغير ، حين خـرجت فى أول مظاهرة فى حيـاتى تطالب بالاستقلال التام أو المـوت الزؤام ! ··

أيامها كنت خارجا لتوى من قبضة أمى وأبى ، من قبضـة الأوامر والنواهى ، من قبضة الخـوف والحب · وشعرت وأنا أشترك فى أول مظاهرة فى حياتى أننى أولد من جديد ، وانننى أستطيع أن أفعل أو أقول أى شيء ، دون أن يشعر بى أحد · جريت ، وصرخت ، وقذفت بالأحجار الى آخر مدى تستطيع أن تمتد اليه قوة ذراعى · ثم قذفت بنفسى ، وقد استبد بى الحماس الى الفضاء ، وتعلمت كيف أنطق بلا خوف الكلمات التى كنت أخاف أن أستمع اليها !!

كنا أيامها نطالب بالحرية · ودائما كانت ترتبط الحرية فى حياتى بالزحام ، وبصورة الجماهير الصاخبة والهادرة ·

وكنت فى حاجة الى مظاهرات أخرى كثيرة أشترك فيها لأعرف الوجه الآخر للحرية وللزحام ، فقد كنت أدرك على نحو غامض أن هناك شيئًا شيطانيا يولد فى الزحام ·· فى كل زحام · أحس به قبل أن أراه · أخافه ، وأتوقعه ، وأتوقاه بغرائزى وحدها · لم يكلمنى عنه أحد ، ولم يحذرنى منه أحد · ولكننى لم أعرفه حق المعرفة الا فى ذلك اليوم الذى اصطدمت فيه احدى المظاهرات التى كنت أسير فيها بجنود البوليس ، ووجدت نفسى فجأة تحت الأقدام ، تهصرنى ، وتكاد تسحقنى سحقا · لحظتها أدركت رغم أعوامى الأربعة عشر · أدركت وأنا شبه فاقد للادراك ، أن ما كنت أخافه فى الزحام ، هو نفس ما كنت أحبـــه ·

فحين كنت أصرخ من الفزع والألم هذه المرة ، لم يكن هناك أيضا من يحس بى أو يرانى ·

من يومها وأنا أغازل الزحام من بعيد · من يومها وأنا أشارك فى كل المظاهرات والتجمعات من شرفات المنازل ، ومن خلف زجاج النوافذ · ألبى سحر الزحام ، وأهرب من شره ! أرى فيه كل ما هـو ملائكى أو شيطانى ، دون أن أصبح ملاكا أو شيطانا !!

ما الذى جعلنى أخرج على قاعدتى الذهبية ؟ وأقذف بنفسى من شرفة النافذة الى قلب الجمـاهير الهادرة والصـــاخبة ، فى ذلك الصباح ، أو فى ذلك المساء ·· لا أذكر !

كان فى المسألة كلها شىء غير واضح وغير محـدد ، وكأن ما أراه ليس سوى مجرد حلم غريب · لا أقوى على نفيه أو اثباته ! تمثال رمسيس أحد الأشياء التى تضفى على الحلم مسحة الحقيقة ، وقدرتى على التفكير فى وضوح تنفى نفيا قاطعا أن يكون ما أراه وما أرويه مجرد حلم · ففى تلك اللحظة كنت أفطن الى سبب وجيـــه يبرر انخراطى فى تلك المظاهرة ، وتلبيتى لسحر الزحام !

كنت أدرك أننى لم أعد ذلك الصبى الذى يمكن أن تدوسه الأقدام ؟! من منا يفطن الى أنه يكبر ؟ اننا نفطن الى حركة كل شىء من حولنا ، ولكن من يفطن الى حركة عمره ·· حركته فى الزمن ؟

كنت فى حاجة الى عشرة أعوام أو أكثر لأصبح قادرا على أن أقذف بنفسى من أمان الشرفة ، وأسلم نفسى لتيار الجماهير ، ودون أن أسأل عن السبب الذى من أجله تجمعوا ، ولا عن الغاية التى اليها يسيرون ·

كيف يشعر بروعة التيار من يجلس على الشاطىء ؟ كيف كيف اعتقدت أنه بمقدورى أن أضحك على الحياة ، آخذ منها ، ولا أعطيها ؟ واكتشفت ، وأنا أسلم نفسى للزحام ، الحماسة والمرح ، اننى كنت مثل كل مدعى الذكاء لا أضحك الا على نفسى ·

ولكننى ـ وأرجو ألا أكون هذه المرة مجرد مدع للحقيقة ـ كنت لا أزال أشعر أيضا بالخوف ·· لا ·· انه ليس خوف الحالم ، ولكنه خوف ذلك الصبى الصغير الذى كنته ذات يوم · خوف تثيره الأقدام والأيدى · قلت له ، للصبى الصغير فى داخلى ، أطمئنه : لا تخف · لا مدعاة للخوف من الجنود هذه المرة · ألا ترى ؟ أنهم يقفون على جانبى الطريق ، فوهات بنادقهم مصوبة نحو الهواء فى الأعالى ، وعيونهم تنظر الى الزائر الكبير الذى ربما جئنا فى انتظاره ؟ ولكن الزائر الكبير لا يجىء ، ويمضى الوقت ، وهو لايمضى عادة فى الأحلام ، فالحلم كله لحظة خاطفة · ولكن فكرة غريبة ، فكرة لا تليق الا بحلم عريق وعظيم ، فكرة أنه لا يوجد زائر كبير أو صغير ، وأن الدولة هذه المرة هى التى تحتفل بجماهيرها ، تحتفل بخروج هذه الجماهير الى الشوارع ترقص ، وتغنى ، وتمرح بلا خوف ، وأن صفوف الجنود تقف على جانبى الطريق لتحيتها ، وعلى ستراتها البيضاء صفوف من الأزرار النحاسية اللامعة فى مشرق الشمس أو مغربها ·· لا أدرى ؟

وعصفت بى نشوة من المرح الغـامر المستبد · لم أذق طعمها منذ سنين ، وكأننى صدقت الفكرة التى أردت أن يصدقها الصـبى الصغير الخائف فى أعمـــاقى ·

رقصت · لوحت بيدى · عانقت الفضاء · هتفت بلا خـــوف بالكلمات التى كنت أخاف من مجرد سماعها · ولكنى ـ وأرجـــو ألا أكون مجرد مدع للحقيقة ـ كنت لا أزال أشعر بالخوف · من أى شىء ؟ قلتها لنفسى بصوت عال هذه المرة · قلتها لأمحو خـــوفى ، لأغرقه فى الصخب الذى أسمعه ـ فقد كانوا جميعا يرقصـــون ويترنمون ـ ولأغرقه فى الصخب الذى أصنعه ، ولكن خوفى لـم يغـــرق ، كان يرتفـع كلمـا ارتفـع صـوتى ، ويلوح مع الأيـدى الملوحـة ·

متى بدأت أفكر فى الخروج من الزحام ؟ متى بدأت أصـارع ضغط الأجساد والأيدى ؟ وأتوقى بحـذر لا يملكه الحالم خطـوات الراقصين ؟ متى بدأ الطـــريق يختفى عن عينى ؟ متى بدأت أشعر بأننى أوشك أن أفقد الحـرية التى كنت أعربد باسمها ؟

متى بدأ كل شىء يختفى عن عينى عدا هـــذا النصل المرهف اللامع القصير الذى لمحته فى يد شخص كان يسـير بجـــوارى · شخص لم أكن حتى هذه اللحظة رأيت وجهه · بريق النصل وحده شد عينى · شد كل انتباهى ، وهو يغوص فى لمح البصر فى الجسد الذى كنت أحاول عبثا أن أزيحه من أمامى بحثا عن طريق !!

وسـقط الجسـد الذى كان يسد أمامى الطريق · واختفى النصل اللامع فجأة كما ظهر فجأة · لم يســـمع أحد غيرى صرخة الجسد أو سقطته · كان الجسد قد أفسح لى طريقا لأصبح القاتل · كدت أسقط فوقه · دماؤه على يدى · والقاتل الحقيقى يرقص فى هدوء أمامى · ظهره للقتيل لم يحاول أن يهـــرب أو يختفى · كان ما يفعله هو أعظم وسائل الاختفاء · كان قد أهدى جريمته لى فى مشهد يليق بحـلم عظيم وفظيع ·

وتوقف الزمن · للحظات توقف الزمن · لكن الرقص لم يتوقف ·· للحظات توقف الزمن · ولكن عقلى لم يتوقف كان الصبى الخائف بحق قد أصبح رجلا خائفا بحق كذلك · سوف أتمزق الى ألف قطعة صغيرة قبل أن أسأل أو أجيب ؟·· وحتى قبل أن أصحو من ذلك الكابوس لو أنه كان مجرد حلم ؟ ·

توقف الزمن ، ولكن عقلى لم يتوقف · ما الذى جاء بى الى هذا المكان ، والى هذا الوقت ؟

ومن الزائر العظيم الذى سوف تقدم جثتى وجثة رجل آخر ـ لم أبصر حتى هذه اللحظة وجهه ، مع أن دماءه تغطى ثيابى ويدى ـ على مائدته ؟

أيمكن ألا يأكل الناس سوى أنفسهم حين يحتفلون بها ؟ توقف الزمن · ولكن عقلى لم يتوقف ·

ألا يمكن أن يوجد رجل واحد من بين كل هذه الآلاف ، يمكن أن يقدم الحقيقة للزائر العظيم ؟

توقف الزمن · ولكن يدا لم أبصر صاحبها ، لعله كان يقف ورائى ، فقد ظننت يده تمتد للامساك بى ! ولكنها تجاوزتنى لتمسك فى هدوء بكتف القاتل الحقيقى الذى كان يرقص فى لا مبالاة قاتلة ·

من يكون صاحب اليد الممتدة ؟ لا يهمنى أن أعرف اسمه أو أبصر وجهه · يكفى أنه الرجل الذى رأى ما رأيت ، وعرف ما عرفت ·

كانت يده قوية وراسخة كأنها يد كل الناس ·

لحظتها عاد الزمن يتدفق ، ويتعانق فى تياره الحقيقة والحلم ! وانجاب الخوف من الزحام من قلب الصبى والرجل · ربما كان ما رأيته مجرد حلم فظيع ، ولكننى ما رأيت حلما أهدى الى مثل هذه الحقيقة ·· فى الزحام !!

الانتقام

كان قد فرغ من شراء بعض حاجاته فى شـــارع رشدى حين توقف أمام مخزن للتماثيل ، والصور الزيتية القـديمة ، والتحف النادرة ، تشده الى هذا المخزن صلات قديمة ، دائما يزوره بين الحين والآخر لعله يجد فيه ما يروقه ، اشترى منه مرة هدية «لهم» ، كان ذلك منذ شهور ، وكانت الهدية : صورة لقطة تقعى فى استرخـاء تتأمل ساعة أثرية تشير عقاربها لزمن قديم فى مثل طرازها ، المخزن قريب من «منزلهم» لدرجة أنه فى ذلك اليوم حمل الهدية فى يده وهو ذاهب « اليهم » !

نظر فى ساعة يده · وجد الوقت مناسبا لزيارتهم · دبت فى أعماقه تلك الفرحة الضارية التى تشـــتعل فى صدره كلما ذهب « لزيارتهم » كلما قرر أن يذهب « لزيارتهم » ، ويبدأ كل شىء يتناقص، المكان يتناقص خطوة بعد خطوة ، الزمان يقصر لحظة بعد لحظـة ، حتى يجد نفسه أمامها وجها لوجه · وقبل هذه اللحظة فالموسـيقى التى تعزف داخله ، تطغى على كل شىء يراه أو يسمعه · مع كل

خطوة يشتد العزف ، تفقد الأشياء والأصوات ملامحها واتصالها ودلالتها ، يصبح كل ما يراه أو يسمعه مجرد خلفية لتلك الموسيقى الشجية ، التى تتردد فى داخله ، الى أن يتوقف أمام باب شقتهم ، الى أن تفتح له الباب هى أو غيرها ، فتمتد فى داخله قبضة قوية قاهرة تحكم سيطرتها على كل ما يتردد فى داخله من مشاعر ، وأصوات ، وأصداء ، يتصرف بطريقة شبه طبيعية ، شبه تلقائية ، فما فى داخله شىء يخصه وحده ، أو هكذا يجب أن يبقى ٠

تعود ألا يناقش مشاعره تلك منذ زمن طويل ، بعد أن عجز عن انكارها ، وبعد أن عجز عن البوح بها ٠ لم يبق أمامه سوى أن يلبى نداءها الصارخ الضارى بطريقة لا تدينه ، ولا تحرج غيره ٠

وحين يراها ، فان الدنيا كلها تغرق فى لحظة من الفرح الجنونى ٠ ليس من حق أحد فى هذه الدنيا أن يحرمه من هذه الفرحة ، ما دام هو قد قرر فى لحظة جنون ، عاقلة ، وعادلة ، أن يتعامل وحده مع هذه الفرحة ، يسعد بها وحده ، ويحترق بنارها وحده ٠

ماذا يهم الناس من أمر مشاعره ! ما دامت لا تخرج من قلبه، ما دام مسيطرا عليها كما كان السحرة فى الماضى يسيطرون على المردة والشياطين ؟ وهل كان بمقدوره أن يبوح بمشاعره تلك لأحد ؟ لو كان هناك صديق واحد يمكن أن يختاره بعناية ليبوح له بتلك المشاعر لما كان هناك أحد سواه ٠ «جلال» صديقه ، وزوج «ثريا» الانسانة التى أحبها دون أن يريد ، ودون أن يعرف كيف ٠ الانسانة التى تثق به ، لدرجة أنها كانت لا تتردد أحيانا فى طرح مشاكلها مع زوجها أمامه ، وتثق بكل كلمة يقولها لهم ، ولا تتردد لحظة فى العمل بكل نصائحه ٠

لقد كانت هذه الثقة هى التى جعلته يدرك كم تحب زوجها ، رغم ما يحدث أحيانا بينهما من خلافات ، وجعلته يتخذ قراره الأليم بلا تردد ، ويطوى قلبه على تلك الحقيقة الرائعة المخيفة لتعيش فى قلبه وحيدة ، حبيسة ، مذعورة ، جميلة ، واثقة ، يائسة ، أليمة ، متحدية · لا يسمح لأحد حتى ولا « لثريا » نفسها أن تشم رائحتها · وماذا لو أحست ! العذاب والجنون فى رفضها ، والعذاب والجنون فى قبولها !

★★★

باب العمارة بنقوشه الحديدية ، بزجاجه الملون المغبش ، السلم بدرجاته الرخامية التى تشتد فوقها ضربات قلبه ، البواب الذى يرتاح ويأنس لوجهه الأسمر الطيب ، كما لم يأنس فى حياته لوجه لا يعرف عنه سوى أنه الوجه الذى تعود أن يراه ، قبل أن يرى وجهها بلحظات ·

باب شقتهم الذى يقف أمامه طويلا ليسترد أنفاسه قبل أن يضغط على الجرس ، يده المضطربة تمتد الى جرس الباب ، تدوس عليه برفق · صوت الجرس يصبح جزءا من الموسيقى التى يشتد ايقاعها فى قلبه · القبضة الفولاذية تخرج من مكمنها لتحكم قبضتها على كل الأصوات والأصداء ، ولا يبقى سوى صوت الجرس ·

الباب يفتح ، وجهها يبدو من فتحة الباب ، الوجه العذب الذى يبدو فى كل مرة وكأنه يراه لأول مرة · ثمة شىء جديد يراه دائما ، فى كل مرة ، فى العينين المشبعتين دائما بفيض من السرور الداخلى ، بفرحة ، بحياة لا تبخل على صاحبها بشىء · فى هذه المرة خيل اليه أن الجديد الذى يراه هو مزيج من الدهشة والفرح ، كأنها لم تكن تتوقع هذه الزيارة فى هذا الوقت ·

قالت وهى تسلم عليه :

ـ أهلا ٠٠ أهلا ٠٠ تفضـــل ٠

قال وهو يتبعها الى المدخـل

ـ كنت أمر قريبا من هنا ، فقلت هذه فرصة لزيارتكم !

ـ فرصة طيبة فى كل وقت ٠

قالتها وهى تجلس وتدعوه للجلوس ٠٠

من داخل الصالة أقبل « حمادة » الصغير يقـود دراجته النزلية ، ثم يترجل عنها ليلقى بنفسه فى أحضانه ، قبل الصـغير فى وجنتيه ، ثم سأله وهو يداعب شعره :

ـ أين بابا يا حمادة ! ألا يزال نائما !

ألقى بسؤاله وهو ينظر الى ثريا ، وكأنه ينتظر اجابتها عـلى نفس السؤال !

خيل اليه أن ذات الدهشة التى طالعتـــه فى عينيها ، وهى تستقبله عند الباب ، عادت ترتعش فى صفاء عينيها ، فى وضوح هذه المـرة ٠

خيل اليه أنه يشعر بدوران الأرض ٠ لعلها بدأت تدور فجأة

ـ بابا لم يعد بعد من السفر يا عمى !

خيل اليه أنه يشعر بدوران الأرض ٠ لعلها بدأت تدور فجأة فى الجهة المعاكسة ٠ شعر بذلك رغم أنه كان جالسا على مقعـده فى الانتريه !٠

كان ما برز فى رأسه فجأة ، وعلى نحو غادر ، شىء لا يقدر انسان على احتماله ، كان يعرف أن جلال مسافر فعلا ، ولن يعـود قبل اسبوعين على الأقل ٠ كان هنا منذ أيام قليلة لوداعه قبيل سفره

٠٠ كيف حدث أن سقطت كل هذه الواقعة من رأسه تماما عندما بدأت الموسيقى اللعينة عزفها المثير ! كيف تفهم ثريا سؤاله عن زوجها ! وكيف تصدق أنه صادق ! وكيف تفسر هـذا الصـدق لو صدقته !

كانت الأرض لا تزال تدور فى الجهة المعاكسة ٠ وكان يخيـل اليه أنه يفكر ٠ ولو تذكر قبيل لحظات ، وهو على السلم ، أمام البيت أمامها ، لتغير السؤال قليلا ، ليكون عن أحوالهم وجلال مسـافر ٠ لحظتها لم يكن ليحدث ما حدث الآن ٠ كان شديد الثقة بعقـله ، بقدرته على أن يخفى قدس أسراره ٠ ولكن ها هو عقله يخونه ، ويخذله ، وينتقم منه ٠ وأمام من ؟ أمامها ؟

كيف تفكر الآن ؟ وماذا تفهـم ؟ وماذا يفعل أو يقـول ؟

قال وهو يتحاشى النظر اليها :

ـ لا أدرى حقـا كيف نسيت ؟

ثم مضت فترة صمت قبل أن يضيف بلهجة متوسلة :

ـ لابد أن تصدقينى ٠ وان كنت لا أدرى كيف أفسر ما حدث ؟

سـمعها تقـول :

ـ أصـدقك ٠

ثم أضافت بلهجة فيها شىء من المـرح المقصود :

ـ أنت لا تعرف كيف تكذب ؟!

حتى هذه اللحظـة لم ينظر اليها ، ولم يعـرف أنها قامت الا وهى تقـول له :

ـ اذا سمحت سأصنع فنجالا من القهـوة !

فى هذه اللحظة نفسها ، كانت هى الأخرى تعانى من دوار أشد ، لم تكن فى حاجة الى شىء لتصدقه ، ولم تكن هناك أقل فرصة لتسىء به الظن · كانت هناك عشرات الأشياء الصغيرة تظهر أمامها بغتة ، وفى ضوء جديد ، عشرات الأشياء التى كانت لا تجد لها معنى قاطعا ، لأنها لم تكن تتابع فى شكل يجعل لها تفسيرا واضحا ·!

كلها الآن تبدو واضحة وضوح الشمس ، لتضعها أمام ما لا تقدر على التحديق به ، ومواجهته ، فى لحظة لا تتسع لكل ما حدث خلالها ·

كانت فى حاجة لأن تنفرد بنفسها ، ولو فى المطبخ ، لتصنع فنجالا من القهوة ·

حين عادت من المطبخ لم تجده ·

قال لها حمادة :

ـ عمى كمال خرج يا ماما وقال لى : سأعود لزيارتكم بعد أن يرجع بابا !

لم ترد على صغيرها ، ولم تفاجأ بما فعل · ولعلها استراحت قليلا · كانت فى حاجة لأن تبقى وحدها وقتا طويلا ، وكانت فى حاجة لأكثر من فنجان واحد من القهوة !

خيل اليها أنها سألت نفسها سؤالا :

ـ هل يمكن أن تكون هذه آخر مرة تراه فيها ؟ هل يمكن أن يفعلها ويتركها تحمل وحدها سر هذا اليوم ؟

ولم ترد على أى من سؤاليها ·

أما هو ، فحين أصبح فى الشارع شعر فجأة أنه يطير من على الأرض · ولم يعد يهمه شىء · حتى لو كانت هذه آخر مرة يعود فيها الى هذا البيت ، الى هذا الشارع ، لقد انتقم منه المارد الذى كان يحبسه فى القمقم ، وها هو الآن يحمله ، ويطير به بين السحب ، ولا يهمه أن يسقط ، ويتمزق الى ألف قطعة !!

الليـــل والنهـــار

الليـــل

منذ متى بدأ يخـــافه !

منذ متى بدأ يتوقاه ، ويشـيح عنه ؟

ولكنه يعلم أنه يجيء فى موعده ، لا يتخلف أبدا عن الموعد ، يأخذ معه كل شيء كان أو يكـــون · يأخذ أصدقاءه واحدا بعـــد الآخـــر ·

يأخذ الشمس ، والضجيج ، والعمـــل !

يأخذ الفضول والتوتر ، وكل صنوف المواجهة !

يأخذ الارادة ، والعزم ، وكل أدوات القتال ·

يأخذ الكلمات والبسمات من على شفاه أولاده ، ويتسلل الى عيونهم مع الصمت العميق !

وحين يمسى وحده تماما ، مجردا من كل شيء ، وكل أحـد ، يدرك أن اللحظة الحاسمة قد دنت · ويلتقيان ، يحرسان النيـــام ،

يدخنان السجائر ، يفتشان فى الأوراق القديمة · ويجرى حديثهما فى كلمات متقاطعة · كلمات لا يسمعها النهار ، تبحث عن المعنى الضائع فى النهار ، وفى الليـل !!

المحـــاورة ··

ـ ما الذى جئت لتفعله هنا ـ بحق الله ـ فى هـذا المكان ؟

ـ لا أدرى ! وفى الليل لا أصدق المزاعم التى أقولها لنفسى فى النهار !

ـ فى مثل سنك ينشر الأنبياء رسالاتهم ، ويـدلى الرجـال بشهاداتهم فيما كان ويكون ، ويحرز المقاتلون نصرهم أو هزيمتهم !

ـ سجلى حافل بالهزائم !

ـ وبما كان وجودك هنا ـ الآن ـ أعظم تلك الهزائم !

ـ لا أظن ، فأعظم هزائمى كان يوم الأربعاء الحزين !

ـ ذلك يوم قديم جدا ، ألا تزال تذكره ؟

ـ نعم ، لأن بعضا مما جرى فيه يتجدد كل يوم !

ـ لم تكن مسئولا عما جرى فيه !

ـ ولكننى فى هذا اليوم أدركت ـ كما لم أدرك من قبل ـ أن قدراتى محدودة ، يظل الانسان يعتقد أنه سيبقى قادرا على الحب ، وعلى العطاء ، وعلى التسامح ، وعلى أن يضع نفسه مكان الآخر · وفجأة يكتشف محدودية ما يستطيع أى انسان أن يفعله ! فى ذلك اليوم ، تخيلت نفسى فى مكانه محكوما على بأن أقضى ما تبقى من عمرى فى مستشفى للأمراض العقلية ، الباب الحديدى يقفل دونى ، وأنا أتشبث بقضبانه وأصرخ ، وصوتى يضيع فى صمت الصحراء ،

بينما وجوه أهلى وأصـــدقائى تبتعد ، وتغيب ، وتواصـــل النظر أمامها ٠

ـ ولكنك لا زلت تذكره !

ـ وما جدوى ذلك له ؟

ـ لا زلت تحبه !

ـ كيف تسمى خوفى من نفس المصير حبا ؟

ـ ساعدت أولاده !

ـ أنت الآخر صدقت هذه الأكذوبة من طول ما رددتها عليك ! كيف تسمى هذه مساعدة ؟ بل كيف يساعد الانسان انسانا ؟ لقد جئت الى هنا لأساعد أولادى ، فخذلت نفسى !

ـ قوة أولادك قوة لك !

ـ لو وقفت يوما وراء القضبان فلن أخذ منهم سوى الدموع !

ـ الى هذا الحد تخاف الجنون ؟

ـ الى هذا الحد أخاف العقل ، فالحيوانات تموت ، ولكنها قلما تجن !

ـ لماذا يخاف الانسان الموت والجنون ؟ هل لأنه يجهلهما ؟

ـ هل رأيت حيوانا أو طفلا يخاف الموت أو الجنون ؟

الرجل وحده هو الذى يخافهما ، لأنه يعرف شيئا عن معنى الحياة ! وشيئا عن معنى العقل !

ـ وأنت ألا تزال تخافنى ؟

ـ أخافك لأنك تقودنى الى أشياء أخافها !

ـ تنسى أنك أول من دعوتنى الى زيارتك !

ـ لكنك أول من قاد خطواتى الى هذه الدروب الموحشة ٠

ـ هذه الدروب لم أصنعها أنا ٠ أنت الذى صنعتها بما سرت فيها من خطوات !

ـ كنت أطمع فى أن أخلفها ورائى !

ـ وكنت تطمع فى أن تصنع دروبا جديدة !

ـ نعـــم ٠ دروبا لايدركنى الفزع حين أتلفت اليها !

ـ فى دروبك القديمة أشياء كثيرة جميلة !

ـ أعجز عن رؤيتها حين أراك !

ـ لهذا تخافنى !؟

ـ ربما ٠

ـ لكنك لاترانى !؟

ـ كيف أراك وأنت تسحب النور عن كل شىء ؟

ـ عدا أشياء بعينها فعلتها أنت أو لم تفعلها !؟

ـ أعرف ذلك ، كما أعرف أنه يحتمى بك القتلة واللصوص ، حتى لايراهم النـــاس ، ولكنـــك لاتحميهم من رؤية مايفعلونه فى ظلامك !

ـ بدأنا نتفاهم ، ومع الوقت سوف نمسى أصدقاء !

ـ الويل لى عندما اليوم الذى تكون فيه صديقى الوحيد !!

ـ لماذا تخشى دائما أن يتخلى عنك أصدقاؤك ؟

– لأننى فى بعض الأيام تخليت عن بعضهم !

– لاتريد أن تنسى هذه المسألة !

– أريد ، ولكننى لا أقدر !

– الطريق المأساوى بين الارادة والقدرة . لماذا تحب السير دائما فى هذا الطريق ، مع أن الفواجع تقع فيه !؟

– لكى ألتقى بك ، لم تضرب لى موعدا فى طريق آخر !

– ماذا أفعـــل يا صـــديقى ؟ حين أجىء تكون كل الأبواب والنوافذ قد أغلقت . كل الستائر قد أسدلت . كل العيون قد أطبقت جفونها . وتغلق كل الطرق عدا ذلك الطريق الذى يسير فيه من تدفعهم الارادة ، وتخذلهم القدرة !!

– ولا يكون أمامنا سوى أن نواصل السير فيه !

– نعم .

– لنلتقى باللصوص والقتلة !

– لم ألتق فيه بأحد غيرك !

قالها وقد تغيرت لهجته :

– تعنى أننى واحد منهم ؟!

قالها بفزع .

– هناك أنواع كثيرة من اللصوصية ومن القتل !

قالها بلهجة من يصر على توجيه الاتهام .

– حين ألتقى بك أفقـد قدرتى على التمييز بين الحـدود ، والملامح ، والأنواع !

قالها بتراخ وضعف ٠

ـ لا ٠٠ أنت معى لاتفقد سوى قدرة واحدة ٠

ـ ما هى ؟

ـ قدرتك على الكذب !

قالها بلهجة من يتحرى الموضوعية ٠

صرخ :

ـ فى حياتى كلها لم أقتل شخصاً ، ولم أسرق شيئاً !

ـ يا صديقى لماذا تصرخ هكذا ، مادمت واثقا من صدقك !؟ سوف توقظ النيام !

ـ اذكر شخصا واحدا قتلته أو سرقته !

ـ يبدو يا صديقى أننى أخطأت بالفعل ، فها أنت تثبت أنك لاتزال قادرا على الكذب حتى وأنت معى !

ـ أتحداك أن تثبت ذلك !

ـ سلوى العنانى ٠٠٠ هل تذكرها ؟

ـ تتهمنى بقتل انسانة لاتزال حية ترزق ؟

ـ قتلت فيها الثقة بالناس حين تخليت عنها !

ـ اكتشفت أنها لاتصلح لى !

ـ لماذا تأخر اكتشافك لهذه الحقيقة ثلاث سنوات كاملة ؟

ـ وماذا تكون هذه السنوات فى عمر الانسان ؟ يقضى الانسان عمره كله ، دون أن يكتشف شيئا عن حقائق حياته ، ألتقى بك كل

ليلة دون أن أعرف من أنت ، وما الذى تريده ؟ وتتهمنى بقتل انسانة لاتزال تحيا ! و ...

ـ نعم يا صديقى لاتزال تحيا ، لتفعل بالناس مافعلته أنت بهـا !

ـ أعرف لعبتك القذرة ، تبدأ بالدفاع عنى لتستدرجنى الى ادانة نفسى ، وحين أصبح عاريا أمامك تنهال على بخناجرك . اغرب عن وجهى !

ـ صياحك هذه المرة لن يوقظ النيام ، لأنهم قد استيقظوا . مع بزوغ الضوء تسترد قدرتك الكاملة على الكذب ، وفى النور تختفى ملامحى ! ولذلك سوف أغرب عن وجهك ، برغمى ، وربما من الخير لك ألا ترى هذه الملامح أبدا !

النهـــار :

حين طلع النهار .. غسل وجهه ، وارتدى ثيابه كاملة ، وتذكر أن أسمه « سيد عبد الباقى » ، وتذكر رقم حسابه فى البنك ، وأنه يعانى منذ مدة من ارهاق لايعـــرف له ســببا واضــحا ، وأنه من الضرورى أن يغير الانسان طبيبه أحيانا ، كما يغير أصدقاءه ، وألقى نظرة على مفكرة صغيرة يحملها فى جيبه تذكره بمواعيده ، والمهام التى تنتظره منذ تسلم منصبه الجديد والكبير ، وشد قامته ، ورسم على وجهه ابتسامة خفيفة ، وهو يحيى سائق سيارته التى أصبحت جزءا من المنصب ، وأخرج من زجاجة لاتفارق جيبه قرصا صغيرا لايحتاج الى ماء لكى يبتلعه . وأحس بعد قليل بروحه تنتعش ، وتكاد تسبق السيارة ، وتحلق كطائر .

نهاية اللعبة

« قد تتحول الصداقة الى حب · أما الحب فقلما يتحول الى صداقة » ·

لا أذكر من قائل هذه العبارة ؟ ومهما يكن ، فأنا الآن أصدقه ، وقد كنت ـ منذ شهور قليلة ـ أعتب عليه · لأنه لم يحدثنا عن الطريق القصير والرائع الذى يقع بين الصداقة والحب ! وربما يكون له بعض العذر ، فالناس فى لحظة انتقالهم من الصداقة الى الحب ، لاتكاد تقع عيونهم على ذلك الطريق النادر ، والمثير أن عيونهم تبدو مشدودة الى أضواء الحب التى تشع أمامهم من بعيد ، وتجتذبهم اليها كالفراشات ·

قليل من الناس من يملك الجرأة والشجاعة ليقول لنفسه : قفى هنا · هذه أرض طيبة ، وهذه أنوار هادئة لاتحرق العيون والقلوب · فوق هذه الأرض لن نحترق بنيران الغيرة ، ولن يأتى يوم نبصر فيه نيران الحب ، وقد تحولت مثل أية نيران الى رماد !!

هنا يمكن أن يبقى كل عشب أخضر ، وتتحول فصول العام كلها الى ربيع ؟

أما أنا فقد فعلتها · وحتى أكون صادقا فربما كان الفضل فى ذلك يرجع اليها ، الى صديقتى التى لم تصبح أبدا حبيبتى !

واذا أردت جرعة أقوى من الصدق فربما كان الفضل فى ذلك يرجع الى ظروفنا معا · هذه الظروف التى كانت تحرم علينا أرض الحب · وهكذا وجدنا نفسينا واقفين فى ذلك الطريق الذى يقع بين الصداقة والحب·

على جانبى الطريق لا توجد مقاعد ، أو علامات ، أو اشارات من أى نوع ·· ! وكأنهم كانوا يعرفون أنه لا أحد يتوقف هنا ، أو يجلس ! لم يكن هناك وجود لشىء سوى الحرية ! هذه أرض لا تحكمها قوانين الصداقة ولا قوانين الحب · هذه أرض تحكمها السعادة وحدها · وما حاجة السعداء الى أى قانون ؟

وكان أشد ما نعجب له ، هو أن الناس يمرون بنا سراعا لايتوقفون ، ولا يتلفتون · تجتذبهم أضواء الحب الباهرة فلايشعرون بوجودنا ولا بوجود هذه الأرض الطيبة !!

ولم نأسف لشىء ، ولم نشعر بالحاجة الى أحد ، فوق هذه الأرض الطيبة · كنا وحيدين ، سعيدين ، وكانت لنا لغتنا الخاصة · لغة لا وجود فيها لكلمات الحب ، ولا عهوده ، ولا مراسيمه ، ولا طقوسه · ورغم ذلك فهناك حب طليق فى كل مكان · قد لاتلمسه بيدك، ولكنك تشعر به ـ شعورنا به ـ عبر كل شىء ·· يذوب ، يترقرق ، يومض ، يعبق ، يتخفى فى السؤال ، فيفضحه الجواب ، يتوارى فى النظرة فتعلنه الابتسامة · يجهد فى اختيار كلماته ولكن جهوده تذهب هباء ، فى نبرة الصوت الذى ينطق هذه الكلمات · ورغم أن كل شىء كان يبدو حقيقيا أكثر من الحقيقة ، فلم يكن أحدنا يملك حق

للحديث عن شيء مما يتحدث فيه المحبون ، ولا حق المطالبة بشيء ، ولا حق الغضب ، أو العتاب ٠

ولم يكن هذا كله فيما يلوح لى يخيفها أو يخيفنى ٠ كان كل منا يشعر بما يفكر فيه الآخر قبل أن ينطق به ٠ وحين كانت تحتال لتقول لى ـ دون أن أطلب ـ كلاما أجد فيه كل الاجابات على الأسئلة التى لم أنطق بها بعد ٠ كنت أطير من السعادة !

وأشعر بالدهشة والرثاء لهؤلاء الذين يمرون بنا سراعا ، دون أن يتريثوا لحظة أمام ذلك العالم المبهر الذى تحكمه الســـعادة ، بلا قانون ٠ كنا نلعب لعبة خطرة ٠٠ على الأعراف بين الصداقة والحب !!

أكنا نخدع الحياة أم نخدع نفسينا ؟ كنا مثل آدم وحواء ، قبل أن يهبطا الى الأرض ، نريد أن نقطف الثمرة المحرمة ، دون أن نطرد من الجنة !!

تسألنى عن اسمها أو اسمى ، عر ظروفها أو ظروفى ؟ وما قمية الأسماء ما دامت المسميات حقيقية أكثر م نالحقيقة !

ماذا يفيدنا أن نتكلم لغة الحب ، سوى أن نستحق العقوبة ، وأن نعنى مرارة الشعور بالخطيئة ، وأن نطرد من ذلك الفردوس الذى يقع فى الطريق بين الصداقة والحب ؟!

الى متى يمكن أن تستمر هذه اللعبة الى الأبد ؟ هذا ما كنت أعتقد ! كانت هذه الأرض الطيبة تبــدو وكأنها تقع خارج الزمــان والمكان ، فلماذا لاتستمر الى الأبد ؟!

ذات يوم لا أنساه ، ولا أقوى على تذكره ، اكتشفت أننى أقف وحيدا فوق هذه الأرض الطيبة ٠ ما الذى حدث ؟ لا أدرى ! كنت ألتقى بها مثل كل يوم ، وأتحدث معها مثل كل يوم ، ولكنها لم تكن

هى · ان شيئا ما لم يتغير فى ملامح الوجه ، ولا فى الثياب ، ولا فى المكان ، ولا فى الظروف ، ولا حتى فى اللغـة ·· ولكنها لم تعـد هى !!

وكان الحب الطليق الذى لاتلمسه بيدك ، ولكنك تشعر به عبر كل شىء ، وملء كل شىء ، الذى يتخفى فى السؤال فيفضحه الجواب ، ويتوارى فى النظرة فتعلنه الابتسامة ، ويجهد فى اختيار الكلمات فتضيع جهوده هباء ، فى نبرة الصوت الذى ينطق بهذه الكلمات !

كان هذا الحب الذى طرق يوما ما باب الحرية ، ودخل منه فجأة دون أن يبرز هويته ، هو الذى يغلق وراءه نفس الباب ، ليخرج فجأة كذلك ، ودون أن يطلب اذنا بالخروج !

وعبثا حاولت أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، أو حتى أن أفهم أى شىء ، كنت قد ضيعت كل الأسباب ، وكل الحقوق ، حين ارتضيت أن أقبل أعظم الأشياء بلا ثمن ، وبلا حق حتى فى السؤال ؟

وأقسى ما ووجهت به ، أنها عادت تحتمى بقوانين الصداقة ، حين لم يعد من الممكن أن نعود مجرد أصدقاء ·

انها لاتزال تجامل ، ولاتخطىء ، ولا تقصر فى شىء ، وتتركنى وحيدا فى هذا الفردوس المهجور ، الذى لا أملك فيه أى حق ، فى أى شىء !

كانت الحرية تتقاضى ثمنها · وكانت الحـرية لعبـة غريبـة وقاسية · ومثل أية لعبة فى العالم كان لابد أن يكون لها قواعد ·

وكان على من يتجاهل هذه الحقيقة أن يدفع الثمن ·· ويالله من ثمن !!

فهرس

الموضوع	صفحة
الوهم والحقيقة	٥
مقهى الفردوس	٢١
الزيارة	٣٥
الصواب والخطأ	٥٩
الأعرج	٧٧
هل يموت الأب .. ؟	٩١
ذلك الشتاء	١٠٣
السائل والمسئول	١١٣
وقت الزوال	١٣٣
مهمة غيرعادية (١)	١٤٩
مهمة غير عادية	١٥١
أصوات فى الليل	١٦١
حرصا على سلامة النزلاء	١٧٩
نانى القطة السمراء	١٩١
العصافير	٢١٥

الموضوع	صفحة
عندما بكى سيدنا الخضير	٢٢٣
التعب	٢٤١
هذه المرأة	٢٥٩
الزعيم (٢)	٢٧٥
الزعيم	٢٧٧
واحد منهم	٢٩٥
لكمات متقاطعة	٣٠٣
ذلك الحلم	٣٢٧
السيد (م٠م٠م) وحكايته مع الوجه الذى لا يتغير	٣٣٧
الى من يهمهم	٣٥٥
الجميع يربحون الجائزة (٣)	٣٦٣
الحدود	٣٦٥
بطاقة شخصية لرجل مجهول الهوية	٣٧٩
آخر السهرة	٣٨٩
ذلك الوجه وتلك الرائحة	٣٩٥
الجميع يربحون الجائزة	٤٠٧
فى الزحام	٤١٣
الانتقام	٤١٩
الليل والنهار	٤٢٧
نهاية اللعبة	٤٣٤

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٨٥٩٨

ISBN — 977 — 01 — 3501 — 1